مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

من ملامح البؤس الاجتماعي في شعر العصر المملوكي وصف الدار الساخر لدى شاعرين (ابن الأعمى ٦٩٢هـ، وابن دانيال ت ٧١٠هـ) نموذجاً

د. فرج أحمد الرفاعي سالم علام

مدرس في قسم اللغة العربية

كلية الآداب– جامعة الوادي الجديد

DOI: 10.21608/qarts.2022.164314.1521

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٧) أكتوبر ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

من ملامح البؤس الاجتماعي في شعر العصر المملوكي
وصف الدار الساخر لدى شاعرين
(ابن الأعمى ٦٩٢هـ، وابن دانيال ت ٧١٠هـ) نموذجًا

الملخص:

يتناول هذا البحث إحدى الظواهر الأدبية الدالة على البؤس الاجتماعي في العصر المملوكي، وتجلت هذه الظاهرة في الوصف الساخر للدور. وقد تناولت في بحثي أبرز أسباب الفقر في العصر المملوكي –بوصف ذلك مدخلا تاريخيا ضروريا، ثم أشرت إلى أبرز تجلياته لدى شعراء العصر كما تجلت في الحديث عن الملبس والمأكل وحال الأبناء والدور. ثم تناولت مظاهر البؤس في وصف الدار بين شاعرين مملوكيين متقاربين زمانيا هما: ابن الأعمى ت ٦٩٢ هـ، الموافق ١٢٩٣م، وابن دانيال ت٧١٠هـ، من خلال عدد من الأفكار التي تجلى فيها هذا البؤس أبرزها: تقارب المحاور في النصين، وكذلك المطلع فيهما، ثم وصف الدار من الداخل بحشراتها وزواحفها وهوامها وطيورها الغريبة، ووصف ما فيها من متاع أو أثاث كالحصير والفراش ونحوه، ووصف حال ساكنيها ومعاناتهم فيها. ثم يأتي في النهاية ما هو غاية مأمولهم وعز رجائهم، وغالبا ما يكون ذلك المرجو والمأمول في الآخرة، ما دامت الراحة في الدنيا صارت أملا بعيدا ورجاء ميؤوسا منه.

الكلمات المفتاحية: العصر المملوكي، الشعر المملوكي، الوصف، السخرية، الحياة الاجتماعية. الحشرات.

حدود البحث:

حدد البحث إطارا زمانيا هو العصر المملوكي واختار شاعرين من شعراء هذا العصر تتجلى فيهما الظاهرة المستهدفة، وقد اعتمد البحث بشكل أساسي على قصيدتين في الوصف الساخر للدور لهذين الشاعرين، وهما ابن الأعمى ٦٩٢هـ وابن دانيال الموصلي ت ٧١٠هـ، وتتشابه القصيدتان إلى حد كبير في إطاريهما العام؛ ولذا كانتا صالحتين لتناول الظاهرة من خلالهما. والدراسة لا تسعى للمقارنة أو الموازنة بقدر ما تسعى لدراسة ظاهرة الوصف الساخر للدار في العصر المملوكي من خلالهما بوصفهما نموذجين دالين.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي؛ الذي يوظف تحليل النص الشعري فنيا بما يحقق الغرض من البحث؛ فهو يتلاءم مع طبيعة هذا الموضوع والأهداف المبتغاة منه؛ حيث يتم رصد أبرز الظواهر التي تتجلى فيها ظاهرة الفقر الشديد ويأتي أبرز تجليات ذلك الفقر في وصف الدار على نحو ساخر بما امتلأت به من حشرات وزواحف وغيرها وما فيها من فراش ومتاع بسيط حقير، كما تجلى في قصيدتين لدى شاعرين من شعراء هذا العصر المملوكي هما: ابن الأعمى المتوفى في٦٩٦هـ، وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠هـ. وقد استثمر البحث أيضا المنهج التاريخي في البحث لكونه مدخلا مناسبا وضروريا للوصول إلى الوعي بمدى ارتباط النص بمجتمعه وقضاياه آنذاك، وتجلى هذا الارتباط في مع واقع الشاعر حين وصف الدار وصفا ساخرا.

مشكلة البحث:

- ما أسباب شيوع الفقر والبؤس الاجتماعي في المجتمع المملوكي وظواهره؟
- ما مدى ارتباط الشاعر المملوكي بوصف الحياة الاجتماعية بخاصة البؤس؟
- ما مدي ارتباط الشاعرين موضوع الدارسة بالمجتمع؟ وكيف نظر النقاد إليهما؟
- كيف عبر كلا الشاعرين عن مظاهر البؤس الاجتماعي من خلال وصفهما للدار في نصيهما؟
- ما المحاور أو العناصر المشتركة أو المتشابهة في نصي ابن الأعمى وابن دانيال المعبرة عن الوصف الساخر للدار؟.

وقد سعى البحث إلى وصف حالة البؤس الاجتماعي في العصر المملوكي من خلال تناول الوصف الساخر للدور في العصر المملوكي بوصفه واحدا من أبرز مظاهر البؤس في المجتمع المملوكي، ولكي يتحقق ذلك الهدف فقد سعى البحث إلى تناول الأسباب والدواعي التي أفضت إلى بروز ظاهرة البؤس في المجتمع في العصر المملوكي، ثم أتبعت ذلك بإبراز صور من البؤس كما تجلت لدى عدد من شعراء العصر المملوكي في المأكل والمشرب والثياب والدار وغيرها. ثم سعى البحث إلى التوجه إلى الشاعرين محل البحث لاتضاح تلك الظاهرة لديهما، وتناولها بالدراسة والتحليل، وإبراز اتصالهما الوثيق بالمجتمع وقضاياه وهمومه، ثم توجه البحث إلى دراسة الوصف الساخر للدار عند كلا الشاعرين وتجلياته في نصيهما. ولكي يتحقق ذلك فقد قسمته إلى ثلاثة مباحث: وهي:

- **المحور الأول** : أسباب الفقر في مجتمع العصر المملوكي وآثاره الناجمة عنه على أهله آنذاك.
- **المحور الثاني:** ويتناول أمرين، هما:

أ-ظواهر الفقر في شعر العصر المملوكي

ب- علاقة الشاعرين محل الدراسة بالمجتمع ونظرة النقاد لهما.

- **المحور الثالث** فكان بعنوان: صور الوصف الساخر للدار في نصي الشاعرين. وهذا الترتيب يحقق التدرج في الفكرة والانتقال من الأسباب إلى آثارها، ومن العموم إلى الأقل عمومية، ومن العام إلى الخاص، ومن التاريخي إلى الأدبي.

الدراسات السابقة:

هناك عدد من الدراسات التي أشارت إلى الموضوع لماما، إذ لم تهدف إلى دراسة ظاهرة الوصف الساخر للدور ومن هذه الدراسات دراسة د. محمد رجب النجار: الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م. حيث أشار إلى قصيدة ابن الأعمى مستحسنا لها وذكر بعض أبيات لابن دانيال ولغيرهما ضمن فكرة وصف الدور في عصور المماليك وترد في بضع صفحات فقط من ١٥٨إلى ١٦٥، وهو لا يقصد بعصور المماليك العصر المملوكي فقط ولكنه يمتد به حتي الدولة العثمانية. ومن ثم فلم يكن هدفه هو تناول الظاهرة بشكل مستفيض أو موسع. وهناك دراسة أخرى للدكتور شفيق عبد الرازق أبو سعدة، شعر الخصاصة في شعر العصر المملوكي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، طبعة أولى ١٩٩١م، ولكنها لم تتناول ظاهرة الفقر من خلال وصف الديار أو ما حل بها. والكتاب لا يذكر إلا بضعة أبيات لابن الأعمى (٦أبيات) ضمن حديثه عن غرض الشكوى تحت الفصل المعنون بـ (أغراض شعر الخصاصة). ويعود فيستشهد بـ (٧ أبيات) لابن دانيال عند حديثه عن الفكاهة والسخرية في العصر المملوكي. كما تناولت دراسة "المجتمع المصري في شعر شمس الدين ابن دانيال الموصلي الكحال" للباحثة تغريد وضاح مصطفى كوني [١] صورة الدار ضمن عدد من مظاهر الفقر التي تجلت في شعره ومنها وصف "المسكن" وذكرت بعض أبيات من قصيدته في وصف داره دون الوقوف عندها كثيرا خاصة أن التعويل لم يكن دراسة وصف المسكن في شكله الساخر، وجاء كل ما يتعلق بالمسكن في أربع صفحات.

---

[١] تغريد وضاح مصطفى كوني، المجتمع المصري في شعر شمس الدين ابن دانيال الموصلي الكحال، رسالة ماجستير بكلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، نابلس فلسطين، ٢٠١٣م.ص٥٧:٥٤

توطئة

وقد وردت إشارات متنوعة وكثيفة في شعر العصر المملوكي تؤشر على ارتباطه الوثيق بالواقع؛ حيث اتجه الشعراء إلى معالجة قضايا مجتمعهم التي يعايشونها، خاصة أنه توافرت ظروف كثيرة تدعو الشاعر إلى الاتصال والالتصاق بواقعه التصاقا قويًا.(يكفي للتدليل على ذلك شهرة بعض شعراء العصر بالمهن التي امتهنوها: الجزار، الوراق، السراج، المحار، الكحال، ابن المعمار.) وهذه المعايشة جعلتهم يتمثلون واقعهم شعريا ويبرزون ذلك في نصوصهم، فيبدو الواقع المعيش كأنما انعكس في الشعر مجسما نابضا بالحياة.

ونفذ الشعر إلى جمهور المتلقين بما اتسم به من بساطة لغته، واتصال بواقعهم وملامسة لحياتهم، وهو في الوقت ذاته ليس كله تقريريا مباشرًا ، وإن بدا كذلك حينا. وهذه اللغة قادرة على النفاذ ببساطتها وما اتسمت به من قدرة على الوصف الدقيق والتخييل والمفارقات والتشخيص وغير ذلك من وسائل يوظفها الشاعر في وصف واقعه المعيش ويجلي من خلال ذلك نظرته لهذا الواقع ويلونه بالصبغة التي يريدها له: بالتذمر، بالشكوى، بالسخرية، بالفكاهة، بالمفارقات، حيث وظف الشاعر ذلك لمواجهة ما يعانيه، سواء أكان ذلك على المستوى الشخصي أم على مستوى الجماعة الصغيرة أم على مستويات أعلى: سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وقد أصبح ذلك ظاهرة واضحة في شعر العصر المملوكي يمكن ملاحظتها لدى كثير من شعرائه، وبرز ذلك في شعرهم، كما جاء ذلك لدى ابن الأعمى وابن دانيال بشكل واضح، خاصة آخرهما، الذي وصف كثيرا من جوانب الحياة الاجتماعية.

المبحث الأول : أسباب الفقر في العصر المملوكي وآثاره على المجتمع

لقد برز الفقر إلى الواجهة في شعر شعراء العصر المملوكي، بحكم ما أصاب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من تدهور في كثير من الأوقات، مما انعكس على عامة الناس، "فقد أصبحت المدونة الشعرية المملوكية الوثيقة الإبداعية التي اقتنصت انتكاسات البنى الاجتماعية المتمثلة في انتشار الفقر والعوز في عموم الجسد العربي في ذلك العصر" [١] .

وتتنوع أسباب الفقر ودواعيه تنوعا واضحا، وتتفاوت في عمق تأثيرها. ويعد العامل السياسي من أكثر العوامل فعالية فيما أصاب المجتمع المصري من فقر شديد، بل ربما كانت العوامل الأخرى متفرعة عنه وراجعة إليه؛ إذ "من المعروف أن دولة سلاطين المماليك (١٢٥٠_١٥١٧م) دولة عسكرية الطابع والنشأة" [٢] فقد كانت الحروب [٣] التي خاضها المماليك سواء أكانت حروبا كبرى مثل حروبهم ضد التتار والصليبين

---

[١] د. عماد جيغم عويد العبودي، شعر الجوع في ادب العربي، العصر المملوكي نموذجا، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) المجلد ٣٨، العدد١ السنة ٢٠١٣م. ص ٦

(٢)على السيد على، بحوث في التاريخ الاجتماعي للعصر المملوكي، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠١٤م. ص ٦٦ ، ويشير إلى الدور الذي نهضت به الدولة المملوكية: " وقد شاء قدر هذه الدولة أن تخوض العديد من الحروب. ومنذ اللحظة الأولى التي شهدت مولدها، سواء ضد الخطر الذي تمثل أمامها والقادم من الشرق، ونقصد به الخطر المغولي، الخطر الجاثم على صدر الأمة العربية وهي الخطر الصليبي الذي داهم بلاد الشام منذ عام ١٠٩٧م. وفي حروبها ضد هذين الخطرين قضت على أسطورة الجيش المغولي الذي لا يهزم في موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ، ١٢٦٠م. كما تحقق علي يديها طرد البقايا الصليبية من بلاد الشام عام ٦٩١م، ١٢٩٢م. أيام السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون" ص ٦٦

(٣)فقد أسهمت الحوادث المتتابعة في أن تقدم الدولة المملوكية نفسها للعالم الإسلامى بأنها المنقذ للديار الإسلامية وحامى حمى الإسلام والمسلمين، حيث كان لهم دور بارز وقوي في صدِّ حملة لويس التاسع علي مصر أيام الملك الصالح، ثم جاء بعده هجوم التتار على الدولة العباسية وقضائها على

في معارك كبرى فاصلة أو معارك أخرى متتابعة أو ضد فلولهما من أبرز أسباب اهتمام دولة المماليك بكل ما يتعلق بالحروب من حشد للجند والمعدات والأسلحة ونفقات الجيش الأخرى. ولعل معركة عين جالوت – وما لحقها من القضاء على فلولهم– هي التي أسهمت بقوة في ترسيخ أقدام المماليك على حساب الأيوبيين الذين بدوا متخاذلين تجاه المغول [١] وقد استنزف هذا كله جزءا كبيرا من الأموال التي كانت تجبيها الدولة؛ ولهذا

بغداد مركز الحضارة الاسلامية "فما كاد العالم الإسلامي يتخلص من موجات الحروب الصليبية حتي دُهم بالمغوليات التي سار الخراب في ركابها" فقد كان الدمار كل الدمار يمشي في ركاب هذه المغوليات التي كانت تطمح إلى تدمير أوربا ذاتها، لولا انتصارات قطز وبيبرس . وعين جالوت إحدى أهم المعارك الفاصلة في التاريخ الوسيط التي وقف عندها هذا الطوفان المغولي المدمر لأول مرة، فحفظت على الإسلام أرضه ومعتقده وتراثه وحضارته. واستعادت الشام وحمت مصر من الدمار الذي لحق ببغداد والشام، وقضت على آمال المغول في أرضنا، واستعادت للعالم الإسلامي شيئا من مكانته العالمية، وتحققت في إثرها عظمة مصر المملوكية" د. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي في عصور المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠١٥ ص٦. وكل هذا جعل سجل الدولة المملوكية القتالى مليئا بلحظات المجد والشرف بالدفاع المتواصل عن الأراضى الاسلامية وجعل لها تلك المكانة فى نفوس المسلمين، وهو ما استغله المماليك أنفسهم ليكون تكئة للإمساك بزمام الحكم والاستمرار فيه، للمزيد حول هذه الفكرة يمكن العودة إلى كتاب على سبيل المثال: د.قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٢٤، القاهرة، ١٩٩٩م، و د. سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م. محمد سهيل قطوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م..

(١) وكان لهذه المعركة دور حاسم في ترسيخ أقدام المماليك وتأسيس دولتهم "فقد جاء انتصار المماليك في الواقعة خدمة كبرى لهذه الدولة الناشئة، وعاملا من العوامل المؤسسة لها، إذ أخذ العالم الإسلامي ينظر إلى الدولة المملوكية نظرة كلها إجلال وعطف" أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦، ١٩٨٦ص ١٦٧ وهذا التوهج القومي انهار وتحول إلى النقيض في عصور السلاطين الضعاف والأطفال وسلاطين الراح خاصة في الدولة المملوكية الثانية.

تم فرض ضرائب باهظة على الناس لسدِّ احتياجات الجيش في معاركه المختلفة. [١] وقد يتجاوز الأمر فكرة فرض الضرائب إلى المصادرة، تحت حجج متعددة.

وقد بدا العصر وكأنّ له وجهين: وجها خارجيا له وهجه وعظمته، ووجها آخر داخليا له شدته وقسوته، وقد بدا الوجه الأول لخطورته على كيان الأمة: وجودها ودينها وحضارتها طاغيًا على الوجه الآخر، فقد "عاش الناس أيام المماليك يجترون آلامهم وآمالهم، ويشكون ويكتمون، فالمماليك الذين حالوا بين المغول ومصر، وردوهم على أعقابهم مدحورين، وطردوا الصليبين الطامعين عن الشرق بعد معارك كثيرة ضارية، هؤلاء بدّلوا وجه الحياة تبدلا ملحوظا. فقد ضعف في عصرهم التماسك الاجتماعي، واستكان الناس تحت نير الظالمين وسياطهم وخارت الأخلاق الاجتماعية الفاضلة" [٢]

كما كانت الفتن الداخلية بين المماليك أنفسهم بسبب الصراع الدائم على السلطة والنفوذ والثروة من أسباب الفقر ودواعيه، "ويجدر بنا أن نشير إلى أن الاضطراب السياسي

---

(١) من ذلك ما فعله المظفر قطز(٦٥٧هـ/ ٦٥٨هـ- ١٢٥٨_١٢٥٩) حين هم بمحاربة التتار فقد شرع في فرض ضريبة دينارين على كل فرد من أفراد الرعية، ولكن الشيخ عز بن عبد السلام نهاه عن ذلك، ورأى أنه يحق له فعل ذلك إذا نفد مال بيت المال وما فيه من ذهب وغيره وما لدى الأمراء من ذلك، ثم يحق له أخذ دينار بعد ذلك. ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ط أولى، ١٣١١هـ، ج١، ص ٩٤، والمقريزي في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى محمد زيادة، دار الكتب القاهرة، ١٩٤٣، ج١ ق٣، ص٨٩٨. وقد حدث فرض ضرائب بهذه الحجة في عهد الظاهر بيبرس الذي فرض ضرائب على الناس فأرسل إليه النووي برسالة يلومه فيها علي جمع المال مع وفرته في بيت المال، وكذلك فعل حين ورد الخبر بقدوم غازان على الشام وأمر بجمع مائة ألف دينار وفرض على كل حانوت أربعين دينارا تجمع من العقار الذي يوجدون فيه.. " وللمزيد حول هذه الجزئية يمكن العودة إلى البحث المعنون بـ: الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، للباحث أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد، بإشراف د. قاسم عبده قاسم، بكلية الآداب، جامعة الزقازيق. ١٤٣٢هـ ٢٠١١م ص ٨ وما بعدها.

(٢) د. شفيق عبد الرازق أبو سعدة، في كتابه شعر الخصاصة في شعر العصر المملوكي ص ٦

الداخلي لم يكن ظاهرة قاصرة على عصر الجراكسة فقط، وإنما كان ظاهرة عامة طوال هذا العصر، وتفسير ذلك أن المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك، والتي جعلت العرش من حق الجميع قد أدت إلى تنافس أمراء المماليك على عرش السلطنة الذين اعتبروه حقا للأقوى، وبين الآونة والأخرى كان بعض الأمراء الطموحين يترجمون طموحهم إلى عمل عسكري في شوارع القاهرة التي تتحول إلى ميدان قتال لجيوش المماليك المتحاربة، وقد تمتد على مدى عدة أيام تضطرب أثناءها الأحوال، وتموج البلاد بالفوضى والفزع. وسرعان ما تخلو الطرقات من روادها وتقفر الأسواق، ويهجرها الباعة لتكون ميدانا لقتال فرسان المماليك ومعاركم الدموية" [1] وهذا الاضطراب كان سمة عامة في العصر المملوكي، "بيد أن هذه الحوادث العنيفة زاد معدل وقوعها في الشطر الأخير من العصر، إذ كانت مثل هذه الحوادث في عصر البحرية مرهونة بتصارع الأمراء الكبار حول عرش البلاد في الغالب ولكن نظام تربية المماليك الصارم كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة القوية علي مماليكهم، وساعد علي ذلك مواردهم التي وفرتها الزراعة

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك السياسي والاجتماعي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م،. ص ٢٣٨ ويقول د. محمد رجب النجار مؤكذا الفكرة ذاتها: "ومعظم الثورات والفتن السياسية التي شهدتها البلاد في عصر المماليك كان مصدرها طوائف من المماليك أنفسهم، ذلك أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي تحكمت في تاريخ سلطنة المماليك، من أوله إلى آخره ووجهت ذلك التاريخ وجهة ذات طابع خاص مميز، هي اعتقاد المماليك اعتقادا راسخا بأنهم جميعا – بحكم أصلهم ونشأتهم وطبيعة التطور الذي مروا به متساوون لا فرق بين مملوك وآخر إلا بما حباه الله من صفات خاصة كالشجاعة والذكاء والمهارة في استخدام السلاح والقدرة علي استغلال النفوذ ومادام الأمر كذلك فإن جميع المماليك اعتقدوا أن لهم حقا مشروعا في السلطنة، والمملوك الطموح مهما تقل رتبته أو يصغر شأنه فإنه يتطلع إلى اليوم الذي يصبح فيه أميرا كبيرا، وعندئذ يستطيع أن يستغل مواهبه في أن يتنزع لنفسه دست السلطنة كما فعل غيره من السلاطين السابقين." وهذا الأمر لم يكن مقصورا على فترة محددة أو قصيرة.

المزدهرة والتجارة المربحة" [١] ولكن هذه السيطرة ضعفت في عصر المماليك الثاني[٢] ؛ إذ "في الشطر الثاني من عصر سلاطين المماليك زاد معدل التدهور السياسي الداخلي بفعل النفوذ المتنامي للمماليك الجلبان وعدم قدرة السلطان والأمراء على ردعهم، ومن ثم تكررت حوادث الشغب والاضطراب التي كانوا يثيرونها، فضلا عن نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق حتي أمست تلك الحوادث بمثابة النغمة الدالة في حياة المصريين آنذاك. وكانت النتيجة الطبيعية لمثل تلك الحوادث دائما أن يسري الفزع في النفوس، وتضطرب البلاد وسكانها بالفوضى والخوف وتتوقف بالتالي حركة البيع والشراء وتغلق الأسواق" [٣]، وهذا كله وإن كان أثره وضرره يقع على عموم الناس ولكنه على العامة أشد وأقسى.

وقد حفزهم هذا الصراع الدائم بينهم علي الاستكثار من كل أدوات القوة؛ ولذا حرص المماليك على جمع المال لتقوية نفوذهم سواء أكان ذلك بزيادة الأعوان وشراء الولاءات وعقد التحالفات أو التزيد في شراء المماليك وتربيتهم وتدريبهم وتسليحهم وشراء ولائهم. إذ "لم يَضِنّ سلاطين المماليك وأمراؤهم بالمال في شراء مزيد من المماليك ليكونوا

(١) المرجع السابق، ص ٢٣٩.

(٢) هذه الدولة استمرت في حكم البلاد مائة وأربعة وثلاثين عاما، توالى فيها علي البلاد خمسة وعشرون سلطانا، منهم ستة عشر سلطانا تولوا العرش في تعاقب سريع بينهم بحيث اهتزت مكانة السلطان، ولم يعد أكثر من (الأول بين أقرانه) فقد كان الأمراء هم الذين يولون السلاطين ويعزلونهم، أو يقتلونهم في غالب الأحوال، لقد تجلى في عصر الجراكسة فساد النظام السياسي الذي حكمه مبدأ (الحكم لمن غلب) " ص ١٤٦ د. قاسم عبده قاسم عصر سلاطين المماليك السياسي والاجتماعي ,١٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٩ . ويشير ابن إياس في كتابه بدائع الزهور، إلى عدد من الثورات التي حدثت من قبل الجلبان وأسهمت في اضطراب الأحوال. ج ٣ ص ١٤٧ وج ٤ ص ٣٦٣ وج ٥ ص ٤،٧

لهم سندا ودعامة تقوي مركزهم داخل البلاد وخارجها" [١] وجعلوا لهم مساكن مخصوصة حسب أصل كل مملوك منهم مع العناية بهم عناية شديدة على يد الطواشية الخصيان والفقهاء، "ثم إن الأساتذة من سلاطين المماليك والأمراء، لم يضنوا على مماليكهم بالأرزاق والأموال" [٢]

ويضاف إلى الأسباب الأخرى السابقة ثورات العربان التي كانت دواعيها خليطا من الدوافع السياسية والاقتصادية "وهؤلاء العربان انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد، وبخاصة الشرقية والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط، وكانوا دوما مصدر فتن ومتاعب للحكام والمحكومين سواء، فارتبط تاريخهم في عصر المماليك بالثورات وحوادث النهب والسلب والاعتداء على الآمنين من أهالي القرى والمدن" [٣] وقد تعددت ثوراتهم وغاراتهم علي المدن الكبرى في مصر مثل أسيوط والإسكندرية، والقاهرة أيضا بغرض السلب والنهب "وهكذا ظل العربان طول عصر المماليك مصدرا خطيرا من مصادر الفتنة والقلاقل وعدم الاستقرار" [٤] ويؤكد أحد الباحثين خطورة دورهم في زعزعة استقرار دولة المماليك بقوله: "والواقع أن دور العربان في مصر كان سببا في تدهور أحوالها، بسبب فتنتهم التي لم تنقطع. فهؤلاء العربان كانوا سببا في خراب مصر وضياع دولة المماليك"[٥]

---

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م. ص ٣١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١٩، وسعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، النهضة العربية، القاهرة، ١٦٦٢م ص ١١ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٥

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٧، ود. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ٤٣،٥٣،

(٥) د. عبد المنعم ماجد، طومان باي، آخر سلاطين المماليك في مصر. دراسة للأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٧٨م ٧٠،٧١،

فمع ثوراتهم كانت الأحوال تضطرب اضطرابا شديدا؛ فيفقد الناس الأمن، وتحدث الفتن، ويزيد السلب والنهب، وتضطرب الأسواق فتشح الأقوات، وتغلو الأسعار، وتعسر الحياة، خاصة الطبقات التي كانت تعاني من قبل بطبيعة الحال، فيزداد حالها سوءا. وقد يُفضي هذا كله إلى أن تشلَّ حركة الحياة لفترات قد تطول أو تقصر. وقد استخدم المماليك دوما القسوة المفرطة في القضاء علي هذه الثورات [١] خاصة أن العربان لم يكونوا بخبرة المماليك الحربية.

كما تعددت الانتفاضات التي كان يقوم بها بعض المصريين ابتداء من العام ١٢٩١م، بما عرف بثورة القاهرة، كما حدثت هبات وانتفاضات في الإسكندرية ودمياط وغيرهما. وتشير كتب التاريخ إلى انتشار انتفاضات المعدمين الجائعين للانتشار غير الطبيعى للمجاعات. وكثرت السرقات وعمليات قطع الطرق وتحركات الشطار والحرافيش. وعرفت مصر عددا من الانتفاضات منها ما يعرف بالانتفاضات العامة أعوام: ١٣٦٩ و١٤٠١ و١٤٤٩و١٤٥٠ و١٤٨٠. [٢]

ومن هذه العوامل التي أسمهت في اتساع مساحة البؤس في العصر المملوكي النظام المالي الذي اتبعه المماليك؛ فقد كان شديدا وقاسيا، حيث عملوا على تنويع مصادر

(١) يقول د. أحمد مختار العبادي، في كتابه قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦-١٩٨٦م :"واستخدم المماليك في قمع تلك الثورات وسائل متعددة تنطوي علي القسوة والقهر مثل: التوسيط، والتسمير، والمعاصر، ونشر الأجسام، وسلخ الجلود، ودفن الأحياء وتعليق رؤوس القتلى في رقاب نسائهم، إلى غير ذلك من وسائل القتل والتعذيب المعروفة في العصور الوسطى شرقا وغربا" ص١٢٩.

(٢) للمزيد حول صورة الوضع الاقتصادي وحالات الاضطرابات والهيجان السياسي إلى بحث أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد، الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير بآداب الزقازيق، إشراف د. قاسم عبده قاسم، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م. من ١٢٧، ١٤٢

الحصول على الأموال بصور شتى، ويكفي النظر في دراسة (الإدارة المالية في عصر المماليك من ٦٤٨هـ، ٧٨٤هـ، للباحث أيمن محمد ريحان، التي ذكر فيها أنواعا كثيرة من مصادر الدخل المشروعة وغير المشروعة [١] التي حرص المماليك على تنويعها بشكل كبير وقاسٍ خدمة للسلطان ولكبار الإقطاعيين من المماليك والمنتفعين ممن يحيطون بالسلطة ممن ولتهم بعض مصالح الناس.

وتفنن المماليك في طرق جمع المال من الشعب تحت حجج مختلفة تفننا واسعا، ولم يكن لهم من باب ميسور إلا بسطاء الناس، خاصة أنهم يأمنون جانبهم وشرهم هين، وإذا ما قاموا بثورة فيها بعض الشغب والعنف فسريعا ما يتم القضاء عليها، فكان ذلك مما يضاعف معاناة الناس :" منذ بداية دولة سلاطين المماليك استحدثت عدة ضرائب سميت: الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية" وأخذت أسواق البلاد تعاني من الضرائب التي ازداد عددها وتضاعفت قيمتها على مر السنين" [٢]. كما كان المماليك يقومون بفرض ضرائب طارئة من حين لآخر وقد " كانت الضرائب الطارئة التي كان سلاطين

---

[١] وصلت الضرائب المشروعة إلى (٨) أنواع وهي الخراج، الزكاة، الجوالي، المواريث الحشرية، متحصلات المعادن، دور الضرب، الثغور، الفيء والغنيمة، بينما وصلت الضرائب غير المشروعة التي ذكرها البحث (١١) نوعا،: مكس ساحل الغلة، مكس نصف السمسرة، مكس رسوم الولايات والمقدمين والنواب، مكس مقرر السجون، مكس مقرر الحوائص والبغال، مكس طرح الفراريج، مكس الأقصاب والمعاصر، مكس الأفراح والأغاني، مكس حماية المراكب، مكس مقرر المشاعلية، مكس ضمان المزر، ثم تأتي المصادرات كصورة ثالثة بخلال الضرائب المشروعة وغير المشروعة . أيمن محمد ريحان، الإدارة المالية في عصر المماليك من ٦٤٨هـ، ٧٨٤هـ، رسالة ماجستير ، تحت إشراف د. قاسم عبده قاسم، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

(٢) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٢٤، القاهرة، ١٩٩٩م ص ٢٤٦.

المماليك يفرضونها علي تجار الأسواق لا تقل من حيث ضررها عن طرح البضائع [١] أو التسعير التعسفي. فقد تعين علي التجار أن يدفعوا هذه الضرائب الطارئة التي كانت تزيد بشكل مطرد مع زيادة معدل التدهور في مالية الدولة. ومن الطبيعي أن تسهم هذه الضرائب في ارتفاع الأسعار من جهة، وزيادة محاولات الغش والسرقة في الموازين والمكاييل من جهة ثانية". [٢]

وقد قنن المماليك جمع المال من الناس حتى ما يتم جمعه في صورة رشى مقننة (ديوان البذل أو نظام البراطيل) وقد استحدث المماليك هذا الديوان وهو ما جعل الرشوة أمرا مقننا، وهو نظام ألقى بآثاره السلبية على النظام الاقتصادي وانعكس سلبا بشكل واضح على حياة المجتمع، "فقد كان لأصناف البذل والبرطلة التي شهدتها عصور المماليك آثارها السلبية البالغة بصورة خاصة على الريف، فقد نتج عن ذلك أن خربت معظم الأراضي بسبب هروب أغلب الفلاحين وزراع الأراضي الزراعية، بسبب ما تعرضوا له من شتى أنواع المغارم والمظالم على أيدي أتباع السلطة الذين صدرت لهم الأوامر

(١) ويشير د. قاسم عبده قاسم إلى تعريف نظام طرح البضائع بقوله: " تقوم فكرة نظام طرح البضائع التي كانت تختلف وتتنوع تنوعا كبيرا ما بين الأبقار والماشية والأقمشة والثياب والفراريج والزيت والعسل- وغيرها علي أساس أن تفرض الدولة ما يتوفر لديها من سلع وبضائع لسبب أو لآخر على التجار بالسعر الذي تراه، وبالكمية التي تريدها بغض النظر عن حاجة الأسواق، كما أن التاجر لم يكن له حق الرفض أو حتى المساومة على الأسعار... ويبدو أن إجراء طرح البضائع كان يتبع من حين لآخر نتيجة لرغبة الدولة في مواجهة متاعبها المالية. من ناحية أخرى كانت تلزم التجار بتسديد أثمانها في الحال مما كان يسبب لهم الكثير من المتاعب.." د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك. التاريخ السياسي والاجتماعي ص ٢٤٣

(٢) د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٢٤، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٤٦

بجمع المال بشتى الطرق والوسائل"[١] وزاد من حال الفلاحين سوءا كثرة المظالم والمغارم التي حلت بهم من الحكام والولاة ومن القائمين على عملية الجباية الذين عمدوا إلى استخدام القسوة والعنف المفرط أحيانا مع الفلاحين الذين لا يسددون أو يتأخرون عن السداد دون مراعاة لظروفهم." فقد استخدم الجباة أنواعا من العقوبات لإجبار الفلاحين على تسديد ما عليهم، دون أدنى مراعاة للأوضاع الاقتصادية التي كانوا يعيشونها....وكان العقاب الجسدي من أكثر الوسائل خطورة، وقد كثر استخدامه في الفترة المملوكية، وأدى في بعض الأحيان الى موت الفلاح الواقع تحت التعذيب... [٢]

كما حرص المماليك على بناء والقلاع والحصون والأسوار والقصور والمساجد الكبرى والحدائق والمتنزهات وغير ذلك من جوانب الحضارة المادية، وهذا الأمر قد استنفذ جزءا كبيرا من خزائن المال، حيث "شكلت مظاهر البذخ التي عاشها الحكام (يقصد المماليك) تحديا صارخا للفقراء" [٣] وهذا البذخ والترف حرم الرعية من كثير من الموارد التي يمكن أن تُوجَّه إلى ما يعود بالنفع عليهم في معاشهم وأقواتهم، أو ما يقدم لهم من خدمات تيسر حياتهم وتُعينهم على معاشهم.

(١) د. قصي الحسين، أركيولوجية الفساد والسلطة في النصوص الأدبية والمدونات العربية القديمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٩م، ص ٢٦٨

(٢) د عامر نجيب موسى ناصر، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م ص٣٢٢، ٢٢٣. والفصل الخامس من الكتاب يشير إلى عدد كبير من الضرائب المشروعة وغير المشروعة التي فرضت على النشاط الاقتصادي وخاصة على القطاع الزراعي وآثاره السلبية علي الزراعة والفلاحين.

(٣) محمد سهيل قطوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م.ص ٥٥٨

وهناك عامل آخر كان له دور مؤثر في شيوع البؤس أغلب فترات هذا العصر، وهذا العامل ربما فرضته طبيعة أصل المماليك الذين كانوا من أعراق متنوعة: شركسية وتركية وأوربية وغيرها وهو أنهم لم يذوبوا في المجتمع المصري، إذ "يُلاحظ أن المماليك ظلوا طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر والشام، فلم يتزوجوا منهم، واختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللائي جلبهن التجار. وقد دأبت حكومة المماليك علي تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع إلى "كاتب" أو "عامي" أي إلى غير طبقة المماليك، ومن خالف ذلك تعرض للعقوبة والأذى [١] ولا شك أن هذه العزلة التي عاش فيها المماليك أوجدت فجوة واسعة بين الحكام والمحكومين، فوجدت فئتان متباينتان تمام التباين؛ ولذا "شهدنا كيف كانت طبقته الحاكمة ومن إليها واسعة السلطان موفورة القوة، متعالية العيش، مستأثرة بأسباب الجاه والثراء، بينما أكثر الطبقة من المحكومين تعيش في هوان وحرمان، وفي ذلة وضعف، مكبوتة الآمال، محدودة التطلع، لا حول لها ولا قوة على جلب الخير لنفسها، أو دفع الضر عنها" .[٢] وهذه القوة صارت جزءا من طبيعة الحكم أو لعلها صارت قانونا لهم وعرفا سائدا (الحُكمُ لمن غَلَب). "فأما استنادهم إلى القوة في الحفاظ علي كيانهم فقد كان سياسة مرسومة، يأخذ بها كل من يتولى أمر السلطنة، أو من يصبو بهمته إليها، والقوة هي أساس الحكم

(١) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري. (ولد بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج٩، ص ٢ بتصرف.

(٢) د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م، المجلد الثامن، ٢١٤.

المملوكي، وقانونها هو الأعلى، فمن يملك القوة يستطيع أن يلي السلطنة حتي لو كان عبدا وعلى الناس بعد السمع والطاعة" (١)

ويتصل بما سبق أن المماليك لم يتصلوا اتصالا قويا بالمجتمع المصري– غالبا– إلا وفق ما تمليه مصلحتهم السياسية، بوصفهم حكاما متسلطين على شعب ينبغي أن يخضع لحكمهم إن طوعا أو كرها، ولذا وجدت هوة واسعة بين المماليك الحكام والشعب المحكوم. ولذا يمكن القول "إن اتساع الهوة بين أقلية ارستقراطية عسكرية تمتلك كل شيء، وأغلبية شعبية مقهورة على نحو لم تعرفه العصور السابقة لهو واحد من أكبر المتناقضات في هذا العصر. لقد استأثر المماليك بالقصور الفخمة والبساتين الغنّاء، وأفخر الأثاث وأثمن الرياش وأنفس الحلي والجواري وأبهى الثياب وأشهى الطعام، وأطيب الشراب حتى عُرف عصر المماليك بأنه عصر ازدهار فنون العمارة والأزياء والحلي، كما عُرف أيضا هذا العصر بتكالب هذه الطبقة علي فنون الطعام وإنشاء المطابخ السلطانية الكبيرة على حين كان أبناء البلاد يتضورون جوعا، ويعيشون في مساكن لا تليق بالآدميين، ويرتدون أزياء بالية، تكشف عن عوراتهم أكثر مما تستر. الأمر الذي كان يستدعي بالضرورة مقارنة حادة بين هذه الأقلية المسيطرة وتلك الأغلبية البائسة التي ظلت تجتاحها الأوبئة والطواعين والفتن والمجاعات في هذه العصور كما لم تجتحها في أي عصر آخر" (٢)

ونتيجة للفقر الشديد في المجتمع المملوكي خاصة العصر الثاني فقد انتشرت فئات مهمشة واسعة في الشوارع والطرقات حيث "اكتظت القاهرة وغيرها من المدن الكبرى في عصر المماليك بجمهور كبير من الباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو

(١) د محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي(الدولة المملوكية الأولى)، دار المعارف، مصر، ج١ ، ١٩٧٠ ص ١٧

(٢) محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ١٨٨.

أشباه المعدمين، وهي الفئات التي جمعتها المصادر المعاصرة تحت اسم "العوام". وقد عاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر بالقياس إلى المماليك وغيرهم من الطبقات المنعمة، حتي لاحظ بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر في عصر المماليك أن القاهرة وحدها بها ما يتراوح بين خمسين ألف ومائة ألف بلا مأوى، سوى الطرقات وبلا ملابس سوى أسمال بالية" (١) . وهؤلاء رغم عطف بعد السلاطين أحيانا خاصة أوقات الشدائد والمجاعات، "لكن وضعهم السيئ وكثرة عددهم دفعهم في كثير من الحالات إلى احتراف السلب والنهب وانتهاز الفرص للحصول على أكبر قدر من الغنائم في أوقات الفتن والاضطرابات" (٢)

وقد أفضت هذه الأسباب المختلفة (٣) إلى شدة معاناة الناس وفقرهم المدقع في كثير من فترات هذا العصر خاصة في الفترات المتأخرة. وبرز ذلك في عدة صور، يتعلق أغلبها بالجوع والحرمان من أبسط مقومات الحياة كالمأكل والملبس والمسكن.

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المملوكي في مصر والشام ص ٣٢٣

(٢) المرجع السابق، ٣٢٢، ٣٢٣

(٣) نالت هذه الجزئية جزءا من الاهتمام في البحث كون هذه العوامل هي التي أسهمت بقوة في ربط الشاعر المملوكي بالمجتمع من حوله، وبروز هذا النوع من الوصف الساخر الفكه لكثير من جوانب الحياة ومنها وصف الدور وغيرها، وكذلك تربط هذه الفكرة ذات البعد التاريخي بين التاريخي والأدبي والنظر لهذا التعالق بينهما في شعر العصر المملوكي بعين الاعتبار.

المبحث الثاني: ظاهرة البؤس في شعر العصر المملوكي وعلاقة الشاعرين بالمجتمع ونظرة النقاد لهما.

أ_ ظاهرة الفقر والبؤس في شعر العصر المملوكي

وظاهرة شكوى الفقر ليست أمرا طارئا ولا عارضا في أدبنا العربي ولكنها موجودة منذ العصر الجاهلي، وفي العصور التي تلته، وإن تباينت دواعيها ودرجاتها والفئات والطبقات التي تعاني منه. ولعل ظاهرة الشعراء الصعاليك أكبر دليل على هذه النماذج البشرية التي خرجت من ربقة الارتباط بالسلطة أو مجتمعاتها وعانت ما عانت من ألم الجوع وشظف العيش.

ومن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من شكوى الفقر في العصر العباسي أبو الشمقمق الذي وصف فقره كثيرا في شعره، [1] خاصة ما يتعلق بذكر داره وما آل إليه حالها وما هو عليه من بؤس، وما طالها من ألوان الهوان:

---

(١) يقول محقق الديوان عنه: "أبو الشمقمق من أعظم شعراء عصره تعبيرا عن الفقر، وتصويرا للجماعات الدنيا، وخروجا علي التقاليد الشعرية التي كانت باسطة سلطانها في عصره، من حيث المعنى والأسلوب: ديوان أبي الشمقمق، تحقيق: واضح محمد الصمد دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م ، ص ٢٣،حيث يقول واصفا حاله وبؤسه:

أنـا في حـالٍ، تعالى الله ربّـي، أي حـــال
ليس لي شيء إذا قيـ ل لمـن ذا قلـت ذا لي
من رأى شيئا محالا فأنا عين المحـــال
ولقـــد أُهزلت حتى مَحـــتْ الشمسُ خيالي
ولقـــدْ أفلستُ حتى حَـــلّ أكلـي لعيـالي

ديوان ابن الشمقمق ص٧٨،٧٧

ولأبي الشمقمق يبرز مظهرا من مظاهر الفقر، فهو لا يمتلك شيئا يمتطيه سوى نعله، وإن ترحَّل القوم على مطاياهم رحل هو على رجليه.

أتراني أرى من الدهر يوماً لي فيه مطية غير رجلي

لَقَـد قُلتُ حيـنَ أَقفـرَ بَيتـي مِـن جِرابِ الدَقيقِ وَالفُخّـارَةِ
وَلَقَد كانَ آهِـلاً غَيـرَ قَفـرِ مُخصِباً، خَيرُهُ كَثيـرُ العِمارَةِ
فـأَرى الفَأرَ قَـد تَجَنَّبن بَيتي عائِذاتٌ مِنهُ بِـدارِ الإِمـارَةِ
وَدَعـا بِالرَحيـلِ ذِبـابُ بَيتي بَينَ مَقصوصَةٍ إِلى طَيـارَةِ
وَأَقامَ السِنَورُ في البَيتِ حَـولاً ما يَرى في جَوانِبِ البَيتِ فارَةِ
يَنفَضُ الرَأسَ مِنهُ مِن شِدَّةِ الجو ع وَعَيشٌ فيهِ أَذى وَمَـرارَةِ [1]

وقد عمد الشاعر إلى إبراز الفقر الشديد من خلال هذا الوصف الساخر المنبئ عن سوء حال هذه الدار التي عجّتْ بالحيوانات والحشرات والهوام ثم يشير إلى حدوث نزوح جماعي لها من بيت الشاعر؛ فلا مأكل أو مشرب في هذا البيت البائس؛ فالفئران تتجنبه هاربات منه، عائذاتٍ بغيره؛ فبدت بائسة حزينة، كسيفة البال، وهجرته السنانير لما عانته من شدة الجوع لانعدام صيدها من الفئران.

ويقول أبو الشمقمق أيضا معددا بعض مظاهر الفقر الشديد والضنك الذي يتعايش معه:

بـرزتُ مـن المنازل والقباب فلـم يعسرْ على أحـدٍ حجابي
فمنزلي الفضاءُ، وسقف بيتـي سماء الله أو قطـع السحـاب
فـأنت إذا أردتَ دخلـت بيتـي عليَّ مُسلِّماً مـن غيـر بـاب
لأني لم أجـدْ مصراعَ بـاب يكون مـن السحاب إلى التراب
ولا انشقَّ الثرى عن عـود تخت أؤمـل أن أشـدَّ بـه ثيابي

كلما كنتُ في جميعٍ فقالوا: قرّبوا للرحيل، قربت نعلي
حيث كنت لا أخاف رحيلاً من رآني فقد رآني ورحلي
ديوان ابن الشمقمق ص ٨٠

(١) ديوان أبي الشمقمق ص،٥٤،٦٤٥٣

ولا خِفتُ الإباقَ على عبيدي ولا خفتُ الهلاكَ على دوابي
ولا حاسبتُ يوماً قهرماني [1] محاسبةً فأغلط في حسابي
وفي ذا راحة وفراغ بال فدأب الدهر ذا أبداً ودابي [2]

ويعدد الشاعر بعض مظاهر الفقر المدقع في دار سكناه، حيث لا سقف لهذه الدار؛ فقد صارت السماء سقفها، أو قطع السحاب تظللها، ومن يُرد أن يدخل إليها فلن يجد بابا لها كي يدخلها؛ فهي بلا أبواب، والشاعر لا يجد عودا من الخشب يشدُّ ثيابه إليه، ولا يخشى تمرد عبيده عليه، ولا يخشى هلاك دوابه، وهو ليس لديه خازن أمين لما يملك حتى يحاسبه على كل صغير وكبير. وهو يرى في هذا كله راحة كبرى، وهو يظل هكذا دأبه ودأب دهره.

ويقول أبو الشمقمق أيضا يصف سريرا له، وقد أغرقته علامات الفقر، فلا شيء في السرير الذي ينام عليه، فهو لا يحوي إلا فراشا بسيطا خشنا ينام عليه، وهو لا يمتلك في داره سوى الحقير من الأشياء كالحصير والأطمار

لَو قَد رَأَيتَ سَريري كُنتَ تَرحَمُني وَاللَهُ يَعلَمُ مالي فيهِ تَلبيسُ
وَاللَهُ يَعلَمُ ما لي فيهِ شابكةٌ إِلّا الحَصيرَةُ وَالأَطمارُ وَالديسُ [3]

فسريره مجرد من المتاع والفراش إلا من حصيرة وملاءة مقطعة مرقعة. ويقول أيضا واصفا عُدْم داره لكل مظاهر الخير والحياة.

---

(١) كلمة قهرماني من الكلمات الآجنبية التي دخلت العربية (القَهْرمان): أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه. (فارسي مع).(القَهْرَمَان): مدبّرة البيت ومتولية شؤونه. (مع). ومنه القول المأثور: (المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة).

(٢) ديوان أبي الشمقمق، تحقيق: واضح محمد الصمد ص٢٨،٢٧

(٣) ديوان أبي الشمقمق، تحقيق: واضح محمد الصمد، ص٦٤

لَيسَ إِغلاقي لِبابي أَنَّ لي فيهِ ما أَخشى عَلَيهِ السَرَقــا
إِنَّما أُغلِقُتهُ كَي لا يـــَرى سوءَ حالي مَن يَجوبُ الطُرُقا
مَنزِلٌ أَوطَنــهُ الفَقــرُ فَلَــو دَخَلَ السارِقُ فيهِ سُــرِقا [١]

وقد تجلت في شعره مظاهر أخرى للفقر ليس هنا مجالها؛ [٢] لأن القصد ذكر ما يتعلق بالديار لا عموم الفقر، كحاجة أبنائه للخبز [٣]، وهناك شاعر خصص كل ما وصل إلينا من شعره لوصف الخبز، وهو أبو المخفف عاذر بن شاكر ، ولعل فقره الشديد جعله يضعها على رأس مطالبه [٤]

لقد كانت معاناة الشاعر في العصر المملوكي حقيقية وقاسية إلى درجة تجعل صوت الشاعر بالشكوى جهيرا، فقد عرض الشاعر المملوكي في شعره ما كان يعانيه،

---

(١) المصدر السابق ص٢٨

(٢) للمزيد حول مظاهر الفقر عند أبي الشمقمق ومزيد من النماذج يمكن العودة إلى دراسة د. صلاح حسون جبار العُييدي، تجلي مظاهر الفقر الاجتماعية في شعر أبي الشمقمق، مجلة القادسية، للعلوم الإنسانية، المجلد الثاني والعشرون، العدد٢، ٢٠١٩م.٣٢٩. إلى صفحة ٣٤١.

(٣) ديوان أبي الشمقمق . ص ٦٤، ولأبي الشمقمق أبيات يصف فيها حاجة أبنائه إلى أرغفة الخبز، وإلى أبسط الطعام وأرخصه كالأرز، في أيامهم كلها بما فيها الأعياد. وهو يذكر فعل الزمن فيهم وقسوته عليهم وجفوة الناس لهم لافتقارهم الشديد. ويرى أبناءه لو أنهم رأوا خبزا لهرعوا إليه، غير أنهم عاجزون عن الجري لطول ما جاعوا وشدة هزالهم.

وَذاكَ أَنَّ الدَهـرَ عاداهُــم عَــداوَةَ الشاهينِ لِلـــــوزِ
فَلَــو رَأَوا خُبزاً عَلى شاهِقٍ لَأَسرَعوا لِلخُبزِ بِالجَمــزِ
وَلَو أَطاقوا القَفزَ مــا فاتَهُم وَكَيفَ لِلجائِعِ بَالقَفـــزِ

(ديوان أبي الشمقمق ص٥٩، ٦٠)

(٤) أبو المخفف: من شعراء بغداد في عصر المأمون. ضاع اسمه فيما يبدو، ووصلنا اسمه المخترع (عاذر بن شاكر) (ت ٢١٨هـ) (كان ظريفا طيبا شاعرا، وكان يركب حمارا، وتركب جارية له حمارا آخر، وتحتها خرج، ويدور بغداد، ولا يمر بذي سلطان ولا تاجر ولا صانع إلا أخذ منه شيئا يسيرا، مثل قطعة أو رغيف أو كسرة.

سواء أكانت تلك المعاناة تقع عليه بشكل شخصي أم على المستوى الجماعي. ومما يبدو جهير الصوت، جائرا بالشكوى من عمق مأساته لشدة فاقته، وهوان حاله، قول ابن نباتة:

لــم يبقَ عندي مــا يُباع بدرهم إلاّ بقيـةُ ماء وجـهٍ صُنتُها [1]

وهذا الشعور بالضيق الشديد من الحال والتبرم الشديد نجده في قول ابن دقيق العيد:

لعمرى قـــد قاسيتُ بالفقر شـدةً وقفتُ بهــا فـي حَيــرة وشــتاتِ
فإن بُحْتُ بالشكوى هتكتُ مروءتي وإن لم أبُحْ بالصبر خفت مماتي
وأعظِمْ بــه من نازلٍ في ملمــةٍ يزيــلُ حيائي أو يزيــلُ حيــاتي [2]

فالشاعر – لشدة فاقته وقسوة حاجته– واقع بين نارين وخيارين كلاهما أبشع من الآخر: إما إن يبوح بشكواه؛ فيهتك مروءته ويستبيح كرامته، وإما أن يسكت عما أصابه من إلحاح الحاجة وتغول العوز فيهلك، فقد صار واقعا بين أمرين كلاهما مر ولا خيار ثالث له.

ويقول ابن نباتة مؤكدا ما آل إليه حاله من شدة وبلاء:

أســتغفرُ الله لا مــالي ولا ولـــدى آسى عليه إذا ضمّ الثرى جســدي
عِفْتُ الإقامة في الدنيا لو انشرَحَتْ حالي، فكيف وما حظّى سوى النكدِ
وقد صَدَئْتُ ولى تحت التراب جــلا إن الترابَ لجَــلاّءٌ لكـــل صَــدِى
لا عــارَ في أدبى إن لـم يَنلْ رُتبــا وإنمــا العار في دهري وفى بلــدي

---

(١) ديوان ابن نباتة :، ٧٩

(٢) ديوان ابن دقيق العيد: حياته وديوانه ، دراسة في الأدب المصري تحقيق: على صافي حسين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦ص ١٥٨

هذا كلامي، وذا حظى، ويا عجبا منى ثـروة لفـظٍ وافتقـارِ يـد [١]

فالشاعر يرى نفسه موهوبا، لذا يرى نفسه جديرا بأن يكون صاحب مكانة عالية، لكنه على الرغم من ذلك يعانى من افتقار اليد وإلحاح الحاجة. وبدا الأمر كأنه يطعن في العصر بما أصابه من خلل في القيم وفي الوعي والإدراك، فأهل العصر لا يحترمون أصحاب الموهبة أو أنهم صاروا عجما بهما لا يقدرون الشعر الجيد ولا يقدرون أربابه.

وهذا الفقر الذي ينزل به إنما حل ليس بوصفه ضيفا ولكنه صاحب مقام وقرار، وتتجلى صوره في كل مظاهر الحياة، وفي أشدها احتياجا وأكثرها اتصالا بحياة الناس كالخبز.

يقول الجزار

قسما بلـوحِ الخبزِ عنـد خروجـه من فُرنه، وله الغداة بخـارُ
ورغائف منـه تروقـك وهـي فـي سُحب الثفال كأنها أقمـارُ
من كل مصقول السوالف أحمر ال الخدين للشُونيز فيه عـذار
فكـأن باطنـه بكـفك درهـمٌ وكأن ظاهر لونـه دينـارُ
كالفضة البيضاءِ لكـنْ تغتـدي ذهبا إذا قويت عليـه النارُ [٢]

ويقول الجزار مشبها الرغيف بطفل جميل

بشّرينا بسلة الخبـز حُبلى وافـرحي مـن رُغفانهـا بغـلام
رقِّصيه مُربربَ الخد بادي الحسن، يجلو وجها كبدر التمام

---

(١) ديوان ابن نباتة . ١٢٥ مثال آخر فى قول ابن دقيق العيد:

إلى الله أشكو من وجودي فإنني تعبتُ به مذ كنتُ في مبتدا العُمْرِ
نـروح ونغدو والمنايا فجائـعُ تُكّـدرهُ والموتُ خـاتمة الأمـرِ

ديوان بن دقيق العيد ص ١٧٤ .

(٢) ديوان الجزار ت ٦٧٠ هـ، تحقيق د.حسين عبد العال اللهيبي، مكتبة تموز ديموزي، العراق. ص ١٢١

فهو يُغنيك عن سـواه ولا يُغنيك عنه شيء، وذوقي كلامي
ودَعينا عـن الإدام وعِدي القدر، أمــا قــد آذنت بالفطــامِ [1]

ويقول وقد عم الجوع الإنسان والحيوان، حتى أنه أصلح ما بين القط والفار، فقد عمهما الجوع معا.

قد أصلح الجوع بين القط والفار عندي، لإدبار حظي أي إدبار
ورقّ هذا لذا من سَقمه، فهما كعاشق وخيالٍ نحــوه ســاري [2]

يقول ابن دانيال عن لذة ذكر القمح:

يــا وزيراً قـد أسبـغَ الله ظِلّـه حينَ علّى على السِّماكِ مَحلّه [3]

ثم يقول:

وسأنهي إليـكَ أمـراً عجيبـاً فاستَمِـعْ قِصتي، سـأَلتُك باللـه
إنني قـد تأخّـرَ القمـح عـنّي عاشِقٌ كُـلَّ مخزنٍ فيـه غَلّـه
إن سمعتُ الكيّالَ يشـدو بذكرى غَلّةٍ هـاجَ في فـؤادي غُـلّه
وَمـنايَ إذا أثــارَ غبــاراً أَغبراً لـو كُحِلتُ منـه بِكُحْلَه
ذابَ قلبُ الطاحونِ شوقـاً وللقف ةِ دمـعٌ لهـا بـذي أَلفُ غِسله
ورأيتُ الأطفالَ مِـن عـدمِ الخب زِ تَلَظّى ولــو على قرصِ جلّه

(١) المصدر السابق، ص ١٢٥
(٢) المصدر السابق ص ١٥٥
(٣) المختار من شعر ابن دانيال ص ٧٧، ٧٨

تلك تشكو وتيكَ تدعـو وهـذي تتجـنى عليَّ وَهْيَ مُـدلّـه

فَتراني مُلقى وَعِـرسي تُنــادي قُم وعجّلْ فليس في الصَوتِ مهله

وأَنتَ زوجُ الفراشِ لا عِشْتَ أَم أَن تَ حكيـمٌ كمـا يُقالُ بِوصلَه

ما تُرينا قُرصاً سوى قرصِ شمس ال أفـقِ تبدو وَخُشكنـانِ الأهِلَـه

عَنْتَرُ الحربِ لـو يُطالَـبُ مِثلـي بدِقيـقٍ لَفَـرّ مِـن فَرْدِ حَمْلَه [١]

وقد يشير الشاعر إلى بعض وجوه المعاناة التي يكابدها، والتي تتعدد ظواهرها، فقد يعاني من البطالة أو من قبح هيئته ورثاثة ملابسه، أو كثرة عياله، وقلة دخله، أو انعدامه. كما فعل ابن نباتة[٢] والجزار.[٣]

---

(١) المختار من شعر ابن دانيال ص ٧٧، ٧٨

[٢] ومن أمثلة ذلك قول ابن نباتة ، وهو يبحث عن عمل في دمشق التي سافر إليها بعد أن ضاق به الحال في مصر:

يــا سائلي بدمشق عـــــن أحوالي قفْ واستمعْ عـــن سيرة البطّـالِ
ودع استمــاع تغــزّلي وتعشّقي مـــا ذا زمان العشق والأغـزالِ
طولَ النهارِ لباب ذا مـــن باب ذا أسعى لعمر أبيك سعيّ ظـــــلالِ
لا حظّ لـي في ذاك إلاّ أنـهُ قد خَفّ من طول المسيرِ طُحالي
أسعى على شغلٍ وأتركَ خلـــوةً فأعـود لا علمي ولا أعمـــالي
وإذا تغيّر مـــــوردٌ وقصدت لي صحبا وجدت الصحبَ مثل الآلِ
هذا الزمان ليس فيه خادمـــــا تفضى الأمور به سوى مثقالي
أتـــــــرى الزمانُ يعنيني بولايـــــة أحمى بها وجهى عـــن التسآلِ
زحلٌ يقارن حاجتي وقـــد انحنى ظهري من الهم انحناء الـــدالِ

ديوان ابن نباتة ١٦٨

[٣] وعن الملابس الرثة المتهالكة كأحد مظاهر الحياة البائسة التى يعيشها الشاعر كتب الجزّار عدة قصائد ومقاطيع مشبعة بالسخرية والتهكم ، ومن أمثلة ذلك وقد بعث له بعض الرؤساء نصفية / رداء نصفى

وأبرز بعضهم فقره الشديد من خلال ذكره كثرة العيال وهم المعاش لعدم كفاية الدخل كما في قول البوصيري في قصيدة طويلة منها هذا الجزء مخاطبا الوزير:[1] وبرز الفقر الشديد لدى شعراء العصر المملوكي من خلال وصفهم المنازل والديار، وما تضمه من فراش . ومن ذلك قول ابن دانيال:

لم يبقَ عندي مـا يُباع ويشترى إلا حصيرا قــد تساوى بالثـرى

وبقية النطـع الذي لعبت بـــه أيدى البلى لمــا تمـزق وانهـرى

أشكـــرُ مولانـــــا ونصفيتى تشكرُه أكثر من شكــرى
أراحها جدواهُ من كل مــا تشكوه مـن دقِّ وعصرِ
كـم مرةَ كادتْ مع الماءِ إذْ يغسلها غسّالها تجـــرى
تموت فى الماجورِ لـولا النشا يبعثها فى ساعـة النشرِ
أراحها الدهــرِ وطوبى لمـــن يريحهُ فى آخر العمـــرِ ديوان الجزار ٦٩

[1] يقول البوصيري موضحا معاناتهم وبؤسهم:

إليك نشكو حالنا إننا حاشاك مـن قومٍ أولى عُسرهْ
في قلةٍ نحن ولكن لنا عائلةً في غاية الكثـــرهْ
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيطِ والإبرهْ
صاموا مع الناسِ ولكنهم كانوا لمن أبصرهم عبرهْ
إن شربوا فالبئر زيرٌ لهمْ ما بَرِحَتْ والشربةُ الجرّهْ
لهم من الخُبّيز مسلوقةٌ فى كل يومٍ تشبه النشرهْ
أقول مهما اجتمعوا حولها تمتعوا بالمـاء والخُضرهْ
وأقبل العيد وما عندهم قمـحٌ ولا خبـزٌ ولا فطْرهْ
فارحمهمُ إن عاينوا كعكةً في يـدِ طفلٍ أو رأوا تمـرهْ
تشخص أبصارهم نحوها بشهقة تتبعها زَفـــرهْ
كـم قائل يـا أبتا منهمْ قطعتَ عنا الخيرَ فى كّـرّهْ
ما صرت تأتينا بفلسٍ ولا بـدرهمٍ ورق ولا نُقْرهْ
وأنت فى خدمة قومٍ فهــل تخدمهم يـا أبتِ سُخْرَهْ

ديوان البوصيري، ص ١١١

نطـع يريق دمي عليـه بقـه حتى تراه وهـو أسـود أحمـرا

في منزل كالقبر كـم قد شاهدتْ فيـــه نكيرا مقلتاي ومنكـــرا

لو لم يكنْ قبرا لما أمسيتُ نسيًّا فيـه حتى أنني لـــم أذكـرا

والقبر أهنأ مسكنا إذ لـم أكـن مــع ضيقِ سكنـاه أُطالب بالكرى

لا فرقَ بين ذوي القبور وبين مَنْ لا رزقَ يُرزقـه سوى العيش الخرا. (١)

يقول الجزار في قصيدة له في وصف داره التي صارت "دار خراب" وقد تجلى هذا الخراب في عدة صور:

ودَارِ خَـرابٍ قَـــد نزَلتُ ولكـــن نــزلتُ إلى السَّابِعَة

طريقٌ من الطرق مَسلُوكَةٌ محجَّتُــها للـــورى شاسِعَة

فلا فَرّقَ ما بين أني أكـونُ بها أو أكون على القارِعَــة

تُساوِرُهــا هَفـوات النَّسيمِ فتُصغى بـــلا أذُن سَامِعَـة

إذا مـا قــرأتُ إذا زلزلتْ حَشيتُ بـــأن تقرا الواقِعـة (٢)

فالدار "دار خراب" فهي ليست مهجورة وليست متروكة لعدم الحاجة إليها لأن الشاعر ما زال يسكنها، ولكن لأنها قديمة ومهترئة يعمها الخراب من كل جانب، فصارت كأنما هي "أطلال"، فكأنما من وضاعتها وحقارة شأنها أنها في الأرض السابعة. إن من

(١) الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال ص ١٥٥، ١٥٦. وللمزيد حول هذه الفكرة يمكن النظر في المجتمع المصري في شعر ابن دانيال، لتغريد محمد من ص ٥٤:٥١.

(٢) ديوان الجزار ١٤٥

يعيش بها يسكن في الفراغ؛ فلا حوائط فيها ولا حوائل بينها وبين الشارع، فمن يجلس فيها كأنما يجلس في الشارع، وهي –لضعفها الشديد وهوان مادتها– إذا سرى فيها النسيم سُمع صوته بوضوح، وإذا قُرئ فيها القرآن فربما خُشي أن تتهدم جدرانها. ويقول د. شوقي ضيف تعليقا على أبيات الجزار "يظهر أن الجزار كان يُكثر من إضحاك الناس على حياته ومعيشته ، ولم يكن يبالي في سبيل أن يصف داره وصفا مضحكا أو أن يصف بعض ثيابه وملابسه" (١)

ويمكن القول إجمالا إن هذه الفترة من الناحية الاجتماعية عصر فيها الناس عصرا، وزادت معاناتهم بشكل قوي بسبب النوازل التي حلت بالمجتمع سواء أكانت نتيجة ظروف سياسية أو اقتصادية أو طبيعية أو نتيجة الأحداث التي تواترت آنذاك.

وإذا كانت الذكريات الطيبة للشعراء في علاقتهم بالدور وأهلها مدعاة لتذكر هذه الأيام وتمني عودتها مرة أخرى لدى الشاعر الجاهلي (٢) ومن بعده لدى كثير من الشعراء وصولا إلى العصر العباسي إلا أننا نجد علاقة الشاعر في العصر المملوكي

---

(١)د. شوقي ضيف، في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، ١٩٩٩م ص ٧٨

(٢) وتتعدد الأمثلة في القصائد العربية الجاهلية علي الارتباط بالأماكن فهو يحن إليها دوما ولمن كانوا فيها، وهو دائما ما يدعو لهذه الأماكن بالخير والسلامة وللديار بالسقيا.

أَلا عِم صَباحاً أَيُّها الطَلَلُ البالي وَهَل يَعِمَن مَن كانَ في العُصُرِ الخالي

يقول طرفة.

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَــةِ ثَهْمَــدِ تلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

وُقُوْفاً بِهَا صَحْبِي عَليَّ مَطِيَّهُمْ يَقُوْلُـوْنَ لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَلَـدِ

ويقول عنترة

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهــم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

بالديار ليست إيجابية، ولا تحمل ذكريات طيبة، ولا تحمل وعدا بقدوم الحياة الطيبة، فلا نجد فيها سوى البؤس بصور شتى وهو ما نجده في كثير من تفاصيل وصف الدور في العصر المملوكي, فبينما من المفترض أن تكون البيوت سكنا وراحة، وهدوءا وطمأنينة، فإننا نجدها صارت دار "فجائع، وبلى وهموم وأحزان وشكوى. وهذا الوصف الناضح بالبؤس يستغرق البيت كله: مساحته، حوائطه، أبوابه، كل زاوية من زواياه، وفي أرضيته وفي سمائه، وما فيه من الحيوانات والحشرات والهوام والزواحف التي تعيش في المكان ويصورها لنا الشاعر تصويرا حيا كأننا نعاينها وهي تتحرك في أرجاء الدار، وهو تصوير ساخر يجعل البيت شبيها بغابة صغيرة. وهذا كله يجلّي ما في الدار من مظاهر بؤس وعوز وقهر ومخاوف. يقول د. محمد رجب النجار ."وإذا كان الشاعر العربي القديم قد وقف عندها يبكيها ويستبكيها لهدف وجداني ذاتي قوامه الحب والحنين والذكرى وكوامن الشجن القديم فإن الشاعر الشعبي في عصور المماليك قد بكى أيضا المنازل واستبكى الديار ولكنه كان يفعل ذلك لغرض مختلف تماما. فهي عنده تجسيد لحاضر بشع وواقع مرعب، هي عنده خرابات وجحور وكهوف ومقابر، فُرض عليه أن يعيش فيها، وهي عنده "متاحف" لكل حشرات الدنيا الطفيلية التي تكالبت عليه تكالب حشرات السلطة لامتصاص دمه، وقد تآزر الجميع عليه، حتي بات عاجزا عن مقاومتها والتمرد عليها. ولكنه لم يفقد الأمل في فجر جديد يخلصه من براثنها ويحميه من عدوانها" (١)

ب: علاقة الشاعرين بالمجتمع وآراء النقاد فيهما :

وقد اندفع كثير من الشعراء إلى مجابهة هذا الواقع القبيح الذي يعايشونه بصور شتى من السخرية والفكاهة والتحامق وغير ذلك من الوسائل التي تبرز حال المجتمع وما

(١) د. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ١٥٨

يعانيه أبناؤه. وقد أشار د. محمود رزق سليم في موسوعته الكبرى عن العصر المملوكي إلى أثر قدوم العناصر الأجنبية وتوليها شئون البلاد على العباد والأدب :"على أنه لا ريب أن تتابع الدول الحاكمة الطارئة من خارج البلاد، ووقوع شعب البلاد فريسة باردة لهذه الدول، وفي جملتها دولة المماليك، رسَّب في النفوس مرارة بالغة. مازجها الخوف من البطش، والخشية من غلظة الحاكمين فتنفست هذه النفوس عن طريق الفكاهة لتتسلى وتتعزى وتسري عن برحائها عن طريق النكتة والنقدة والسخرية لتعبر في هوادة عن آلامها وعن شقائها بزمانها وحكامه وعيشته" [١] وقد وظف ابن الأعمى وابن دانيال الوصف الساخر [٢] للدار ليكون معبرا وشاهدا على وطأة ما تعانيه الأمة.

وقد لجأ ابن الأعمى إلى بعض هذه السبل للتعبير عن معاناته ومعاناة أبناء عصره، قال الصفدي عنه"عَليّ بن مُحَمَّد بن المبارَك الأديب كَمَال الدّين بن الْأَعْمَى الشَّاعِر صَاحب المقامة الَّتِي فِي الْفُقَرَاء المجرَّدين روى عَن ابْن اللَّتِّي وَغَيره وَكَانَ شَيخا كَبِيرا من بقايا شعراء الدولة الناصرية انْقَطع فِي آخر عمره بالقليجيَّة وَكَانَ مقرئاً بالتُربةِ

(١) د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م، المجلد الثامن، ٤٤٤.

(٢) ميز د. عبد العزيز شرف بين الفكاهة والسخرية بقوله:" ونذهب في التمييز بين الشعر الفكاهي الضاحك والشعر الهجائي الساخر إلى أن الفكاهة في الأول تقوم علي العواطف، بينا تقوم السخرية في الآخر علي العقل، فالشعر الفكاهي الضاحك ذو طبيعة بريئة، بينما الهجاء الشخصي ذو طبيعة عكسية، ذلك أن الفكاهة في الاول تضحك ":من" لكن السخرية في الثاني تضحك "على". "د. عبد العزيز شرف، الفكاهة في الأدب العربي، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص ٦٢.

الأشرفية وَالْأَعْمَى وَالِده الشَّيْخ ظهير الدّين الضَّرِير النَّحْوِيّ الَّذِي كَانَ خطيب الْقُدس وتوفّي سنة اثْنَتَيْنِ وَتِسْعين وست مائَة [١]

وقد نالت قصيدته في وصف داره شهرة واسعة لما اتسمت به من جودة فنية وما فيها من وصف ساخر للدار، مع طرافة الوصف ودقته وطول النص، وهذا ليس معهودا في أدبنا القديم فأشارت إليها عدد من المصادر منوهة بها، فقد وردت في فوات الوفيات : "وقال يذم دار سكناه ويبالغ فيها" [٢] ، وقال صاحب المستطرف :" وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يسكنها " [٣]، ويقول الزركلي:"علي بن محمد بن المبارك، كمال الدين ابن الأعمى: شاعر، من أهل القاهرة. له ذم داره قصيدة مشهورة، مطلعها:

دار سكنت بها أقل صفاتها ... أن تكثرالحشرات في جنباتها "

وهو صاحب " المقامة البحرية . [٤]

كما نال شعر ابن دانيال إعجاب النقاد لجودته وما اتسم به شعره من روح فكهة وسخرية لاذعة واتصال بأحوال الناس في عصره. يقول عنه الصفدي: "مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم ابْن دانيال مُحَمَّد بن دانيال بن يُوسُف الْخُزَاعِيّ الْموصِلِي الْحَكِيم الْفَاضِل الأديب شمس

---

(١) صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢٢، ص٨٣ – ٨٤ .

(٢) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٤م، ج٣، ص٧٣ وما بعدها .

(٣) المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: ٨٥٢هـ)،عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ، ص٢٥٤ .

(٤) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)،الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م، ج٤، ص٣٣٤

الدّين صَاحب النّظم الحلو والنثر العذب الطباع الدَّاخِلَة والنكت الغربية والنوادر العجيبة هُوَ ابْن حجاج عصره وَابْن سكرة مصره وضع كتاب طيف الخيال فأبدع طَرِيقه وَأغْرب فِيهِ فَكَانَ هُوَ المطرب والمرقص على الْحَقِيقَة وَله أَيْضا ارجوزة سَمَّاهَا عُقُود النظام فِي من ولي مصر من الْحُكَّام [1] قال عنه الصفدي :"نُكته تفعل بالألباب ما تفعله ابنة الزرجون... يأتي بمضحكات تعجب منها الثكالي، وتنشط الكسالى" [2] . وقد أشاد بمهارته في الشعر وتفوقه ابن حجر العسقلاني قائلا عنه : "...تعانى الْآدَاب ففاق فِي النّظم وسلك طَرِيق ابْن حجاج ومزجها بطريقة متأخري المصريين يَأْتِي بأَشْيَاء مخترعة وصنف طيف الخيال الشَّاهِد لَهُ بالمهارة فِي الْفَنّ وَله أرجوزة سَمَّاهَا عُقُود النظام فِيمَن ولي مصر من الْحُكَّام وَكَانَ كثير النَّوَادِر وَالرِّوَايَة . [3] ووصفه ابن تغري بردي بقوله: صاحب

(١) صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠م، ج٣، ص٤٣ . انظر أيضا محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (المتوفى: ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٤م، ج٣، ص٣٣٥ وما بعدها

(٢) الصفدي أعيان العصر وأعوان النصر، حققه على أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، محمد موعد، محمود سالم محمد، قدم له مازن بعد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، دار الفكر دمشق سوريا ١٩٩٩٨م. ج٤ /ص ٤٢٢

(٣) أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – صيدر اباد/ الهندالطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج٥، ص١٧٥.

النّكت الغريبة، والنوادر العجيبة، وهو مصنّف «كتاب طيف الخيال وكان كثير المجون والدّعابة. [١]

ولشاعريته ولكونه مبتدع "خيال الظل" فقد أعطاه هذا شهرة واسعة امتد صداها حتى عصرنا الحديث. "وابن دانيال يحذو حذو ابن الأعمى في قصيدته وكانا متعاصرين، والجدير بالذكر أن ابن دانيال يسوق قصيدته على لسان الأمير وصال(بطل التمثيلية الظلية طيف الخيال، بعد أن حالَ به الحالُ ومال المال، وذهب الذهب وفضت الفضة، وهو هنا ممثل العنصر العربي، ورمز الخليفة العباسي المغلوب على أمره" [٢] "وهذه التمثيلية تصور الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس" [٣] وابن دانيال في معالجته للأوضاع الاجتماعية آنذاك يجعل من البيت معادلا للوطن :"لقد كان ابن دانيال بحسه السياسي الناضج ورؤيته الواعية في تمثلياته الظلية، من أكثر الشعراء الذين اتخذوا من بيوتهم (والبيت رمز للوطن) دليلا ماديا وملموسا على سوء الأوضاع السياسية والاجتماعية والصحية، فأكثر من وصفها وتصويرها" [٤] موظفا في ذلك ملكاته الساخرة

(١) يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج٩، ص٢١٥.

(٢) د. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ١٦١

(٣) د. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م، ص ٣٨٤ ويقول د. شوقي ضيف عن هذه التمثيلية وقيمتها :" والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بالروح الفكهة، ويتخللها الغناء والرقص، ويطرد فيها التسلسل، وشخوصها في غاية الوضوح، وهي تصور كثيرا من جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة، وما زال ابن دانيال يمتع أهل القاهرة بتمثلياته الهزلية وفكاهاته التي كانت تدور في أفواه الناس حتي وفاته سنة ٧١٠للهجرة" د. شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات مصر، ص ٣٨٤

(٤) د.محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ١٨٩

وتحامقه الذي اشتهر به ليجلي صورة العصر. " هذا التحامق الذي يضحك به ابن دانيال عصره لا يجعلنا نضحك قدر ما نقرأ فيه تاريخا للعصر الذي قيل فيه، ونشاهد فيه تصويرا للحياة السياسية، وربما لمحنا بعض الإشارات إلى حياة الشعب الاقتصادية، وما كانوا يعانونه من ألم الحاجة في تلك الأيام، والرمز في ذلك ينجي الرجل من غضب السلطان وسيفه" [١] وابن دانيال يصوغ قصيدته تلك موظفا فيها قدرته العالية على السخرية والتحامق "ومما قاله ابن دانيال وقد ظهر فيه تحامقه هذه القصيدة من بابة " الأمير وصال" وقد نظمها على نمط معلقة طرفة ابن العبد التي مطلعها:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد [٢]

(١)أحمد صادق الجمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣م، ٢٠٤.

[٢] – د محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك ص ٢٠٨.

المبحث الثالث

صور التشابه في وصف بؤس الدار في نصي الشاعرين

ويمكن تناول دراسة النصين معا من خلال بعض المحاور التي تشكل في النهاية كلا متماسكا. ويمكن أن تقسم قصيدة ابن الأعمى إلى عدد من المحاور هي:

- مطلع النص وحمولته الدلالية (بروز الفقر فيه وعلاقته بباقي النص)
- خلو الدار من كل خير وامتلاؤها بكل شر.
- تنوع الحشرات والحيوانات والزواحف والهوام فيها.
- الوصف المادي لبعض جوانب الدار.
- الدنيا كلها شقاء والأمل في عطاء الله في الآخرة.

وتأتي قصيدة ابن دانيال ت ٧١٠ هـ / ١٣١١م) [١] على عدد من المحاور التي تصف الدار من نواح متعددة (القصيدة من بحر الكامل) وهي:

- مطلع النص وحمولته الدلالية وعلاقته بالنص كله.

---

[١]شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف بن معتوق الخزاعي الموصلي، لقب بـ الشيخ والحكيم (أم الربيعين، الموصل، ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩م – القاهرة، ١٨ جمادي الآخرة ٧١٠ هـ / ١٣١١م)، طبيب رمدي (كحال) وشاعر وفنان عاش في العصر المملوكي وبرع في تأليف تمثليات خيال الظل وتصوير حياة الصناع والعمال واللهجات الخاصة بهم وحاكى بطريقة مضحكة لهجات الجاليات التي كانت تعيش في مصر في زمنه. من أشهر تمثلياته التي لا تزال مخطوطاتها موجودة «طيف الخيال»، و«عجيب غريب» و«المتيم وضائع اليتيم». تعتبر أعماله تصوير حي لعصره. وصفه المؤرخ المقريزى بأنه كان كثير المجون والشعر البديع، وأن كتابه طيف الخيال لم يصنف مثله في معناه.

- وصف ملامح الدار الخارجية
- وصف بعض متاع الدار من الداخل
- وصف حشرات الدار وتنوعها.
- المأمول في الآخرة لا في الدنيا.

ويمكن من خلال النظر في هذه المحاور إدراك التشابه في الخطوط العامة في كلا النصين على الرغم من تفاوتهما كميا. فقصيدة ابن الأعمي يبلغ عدد أبياتها ٤٦ بيتا في حين تبلغ قصيدة ابن دانيال ٢٦ بيتا. ولعل من أبرز المشترك بين النصين وجود حالة من الفقر الشديد، وتجلي هذا الفقر في البيت الحقير الذي يعيش فيه الشاعر، وتبرز صور متعددة لهذا الفقر منها انعدام أدوات المعيشة والفرش والبُسط في المنزل، ولكن يتجلى الفقر وسوء الحال حين تشيع في البيت حشرات وهوام وزواحف هائلة العدد، ولأن حال الشاعر سيئة ولا أمل في تحسن حاله فإنه يرجو ذلك من الله في الآخرة.

المحور الأول : مطلع القصيدة في النصين:

- يتشابه المطلع في النصين في إطاريهما العام، وهو كونهما يشيران إلى بؤس عام يعم صاحبيهما ويغمرهما غمرا. يقول ابن الأعمى:

دار سكنتُ بها أقلُّ صفاتِها أن تكثرَ الحشراتُ في جنباتها

الخيرُ عنها نازحٌ متباعـــدٌ والشرُّ دانٍ من جميعِ جهاتِهـا

يأتي مطلع القصيدة لدى ابن الأعمى ليؤكد أن ما سيرد من وصف لهذه الدار ليس وصفا لطلل، كما كان يفعل الشاعر العربي القديم، أو أنها دار هجرها أهلها، وإنما هي دار الشاعر التي ما زال يسكنها، ويعيش في جنباتها.

كما يأتي مطلع هذه القصيدة ليشير إلى تصور عام يتصل بهذه الدار، وكأنه يؤطر ما يتعلق بهذه الدار تأطيرا عاما يتصل بما هو موجود فيها وبوفرة ظاهرة، وما تخلو منه خلوا تاما يكاد يصل إلى مرحلة العدم. ويأتي ذلك الوجود/ العدم على هذه الشاكلة، وما يَرِد بعد هذا المطلع يمثل وتشقيقا لهذا الأصل وتفصيلا له ، وتنويعا على هذا المجمل:

- "تكثر الحشرات في جنباتها" فهي على ضآلة مساحتها كأنها غابة ترتع كل الحشرات بمختلف أنواعها في جنباتها.
- وهي "الخير عنها نازح متباعد"، فلا خير يقربها أبدا، بل أنه يهرب منها.
- "الشر دانٍ من جميع جهاتها" وفي مقابل الخير الذي لا يردها أبدا، ويهرب منها فإن الشر يحيط بها ويطوقها من كل الجهات.

وقد جَمَع البيتان كل ما يجعل هذه الدار عديمة الجدوى، بل ما يجعلها كتلة من الضر تصيب بأذاها من يسكنها فيما يرى فيها أو يسمع أو يلمس. فحيثما سار لحقه أذى.

وانطلق الشاعر في وصف داره وما فيها كما فعل الشاعر القديم في وصف الديار ومراتع الأحبة، ولكن شتان بين الأمرين من عدة جوانب.

- الشاعر القديم حين كان يصف الديار وبقاياها كان يصف أماكن كانت موضعا لحياة مفعمة بالذكريات الطيبة، وهي حياة هانئة ندية، يلهج بذكرها. وعلى الرغم من تقادم العهد ومرور الزمن فإنه ما زال يتذكر ذكرياته فيها، فهي ما زالت ماثلة في ذهنه. بينما الشاعر الحالي يعيش في هذه الدار التي تشبه الأطلال لتقادم العهد عليها وعبث الدهر بها، فآل حالها من سيئ إلى أسوأ.

- الشاعر القديم كان يصف دار الأحبة الذين ارتبط معهم الشاعر برباط وثيق، فلا نرى في عملية استدعاء الدار في الشعر القديم ما يشير إلى بغضة أو حقد أو ضغينة مع المحبوبة التي فارقها أو فارقته أو مع أهلها، بينما نجد عملية الاستدعاء هنا غير موجودة، فلا حاجة للاستدعاء وأصحاب البؤس يعايشونه، ولكننا غالبا ما نجد الشاعر واقفا في مواجهة البؤس وحده، فلا رفيق معه ولا صديق. (لا نجد عند ابن الأعمى وابن دانيال ذكرا لصديق، أو حبيب أو زوجة أو أي كائن آخر يعايشه أو يلازمه في هذه الدار)
- تتجول عند الشاعر القديم حيوانات طبيعية بنت بيئتها تتسم بحسن التكوين وجمال التفاصيل (كما لدى زهير مثلا)، بينما نجد عند الشاعر الحالي غابة من الحشرات والهوام والحيوانات، التي حصر لها، وهي تتسم ببشاعة المنظر وقبح الهيئة وسوء الفعل وبؤس مآل من تصيبه بشيء من أذاها.
- الشاعر القديم كانت لديه حياة أخرى أو كان يؤمل حياة أخرى واعدة قادمة، أو لعله يستشفها فيما سيأتي بعد الوقوف على هذا الطلل، فلعل الممدوح يعوضه عما عانى من ترك دار الأحبة وطول الرحلة ووعثاء السفر. أما شاعرنا البائس فليس له إلا تحمل الأذى، وتجرع الصبر حتى دخول القبر، فلا بديل لداره، ولا متحول له عنها وعما فيها، ولا يرى في الأفق من البشر خيرا.
- لقد انطلق الشاعر الحالي ابن الأعمى في مقدمة قصيدته كما كان يبدأ الشاعر الجاهلي بوصف الديار، بدأ قصيدته بهذه الجملة (دار سكنت بها) وربما قصد الإشارة إلى أكثر من مغزى من تلك الإشارة.
- أن مطلع النص يحيل إلى المطلع الطللي؛ لأنه يشبه إلى حد كبير مدخل الشعراء القدامى في وصف الديار التي كانوا بها يوما أو كان بها من أحبوهم.

- أن هذه الدار هي مأوى الشاعر الآن، وليست تاريخا مضى يسترجعه ويستعيد ما كان فيه.
- الشاعر القديم كان يقف على الديار يبكيها ويبكى ذكرياته الطيبة فيها. أما الشاعر الحالي فهو يقف على داره يبكي بؤسها وسوء حالها ويبكي حاله فيها.
- الشاعر القديم كان يسترجع ذكرياته في هذه الأماكن، وهي ذكريات مفعمة بالحب والبهجة والسرور. ولكن الشاعر في داره التي يعيش فيها الآن ملآى بالبؤس والشقاء.
- الدار لدى الشاعر القديم ترتبط بذكريات طيبة بمن كانوا يحيون فيها، وكان الشاعر يهواهم، أما الشاعر الحالي فلا نجد ذكرا لأهل ولا بشر يعيشون معه، وكأنما لسوء حاله وشدة بؤسه انقطع عن الدنيا فلا نجد زوجة ولا ولدا ولا صديقا ولا أنيسا ولا مواسيا.
- الحيوانات في الطلل القديم تمرح وتسرح، حيث لم يعد بها أحد من البشر، وهي حيوانات مفعمة بالجمال والبهاء (العين، الآرام، الظباء .....) أما دار الشاعر الحالي (ابن الأعمى) فهي دار تملؤها الحشرات والهوام والزواحف وغيرها.

وابن الأعمى يجعل هذه الدار هي محور النص ومرتكزه، وبؤرته التي ينطلق منها في وصفه، وحين يذكر أوصافها ويعددها نجدها صفات سلبية يتوالى بعضها وراء بعض.

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تكثر الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعـــد والشر دان من جميع جهاتهـا

هذان البيتان يحملان كل ما في القصيدة من حمولة دلالية، وكأنهما لبُّ القصيدة وجوهرها، وتحمل مجمل ما اشتملت عليه من صور بائسة، وما يتلوهما من أبيات هو شرح وتفصيل لما ورد في مطلع القصيدة. وما هو توزع جليا على أبيات القصيدة:

- تكثر الحشرات في جنباتها.
- الخير نازح عنها متباعد.
- الشر دانٍ من جميع صفاتها.

فدار الشاعر ليس بها محمدة واحدة، وهي فوق ذاك تجمع كل الفظائع والمخاوف والمقابح والمكاره.

فالدار تبدو صورتها البائسة على ثلاثة مستويات وتتجلى فيها:

- كثرة الحشرات فيها.
- نزوح الخير عنها.
- ملاصقة الشر لها.

المستوى الأول . وهو امتلاء الدار بالحشرات، وقد نال وفرة في أبيات القصيدة حين نجد أصنافا وأنواعا

متعددة لهذه الحشرات والهوام والطيور والقوارض والزواحف بشكل مثير جدا، وكأننا بإزاء غابة ممتدة يتجمع فيها ما لا يتجمع في غيره.

(المستوى الثاني): وهو مستوى الخير فإنه يتجلى بالسلب، ولا يتجلى بالإيجاب في أي صورة من الصور، بل هو منعدم فيها.

المستوى الثالث: وهو الشر المنتشر في الدار من كل جانب فيها، وفيه يبرز الشر بوصفه نقيضا للوجه الآخر: الخير، وهو حاضر حضورا قويا.

والصورة الأولى الخاصة بالحيوان يمكن أن تندرج بصورة من الصورة مع الصورة الثالثة (الشر دانٍ من جميع جهاتها) ولكن يبدو أن الشاعر جعلها كارثة منفصلة لما وجد فيها من كثرة الحشرات وتنوعها وقبح فعلها.

أما ابن دانيال فنجده يبدأ قصيدته بعبارة تنم عن فقره التام، وهو ما يجعلنا نتوقع حديثا عن مظاهر هذا الفقر الذي يغشى الشاعر، ثم يشير سريعا إلى تجليات هذا الفقر من خلال داره وما يتصل بها من مظاهر العوز والفاقة. يقول:

١-أَصبحتُ أَفْقَرَ مَن يَروحُ وَيغتدي ما في يَدي من فاقتي إلاَ يَدي

تتجلى ملامح الفقر من مفتتح القصيدة في البيت الأول الذي يبدو كأنه خلاصة البؤس، وجوهر المعاناة، وما يتلوه ما هو إلا تفصيل لما ورد في مطلع القصيدة. وأول شطر يقع في مواجهة المتلقي. (أصبحتُ أفقرَ من يروح ويغتدي)، وإذا كان هناك فقراء كثيرون غيره فإنه لا شبيه له ولا مثيل فيما يعانيه من عظم العوز وفاقة شديدة وفقر مدقع قوله: (ما في يدي من فاقتي إلا يدي). فليس في يده شيء، لا قليل ولا كثير؛ فهو لا يمتلك سوى العدم؛ ولذا استحق أن يكون (أفقر من يروح ويغتدي).

المحور الثاني: وصف الحشرات

حضر في النصين عدد من الحشرات حضورا قويا، مما يجعل النص في صورته الكلية وكأنه وصف خرابة أو غابة مصغرة من الحشرات المتنوعة التي تنطلق في هذه المساحة الضيقة، وتكاد تتزاحم بشكل غريب."لقد كانت مساكن العامة مأوى فطريا أثيرا لكل الحشرات والهوام والجراثيم، وقد تنافس بعضها البعض علي امتصاص دم ساكنيها

من العامة وروحهم، على حين كانت طبقة المماليك تمتص الجزء الأكبر من عرقهم وجهدهم في الوقت نفسه" [1]

وتتنوع هذه الحشرات بشكل هائل (البعوض، براغيث، ذباب، الخطاف، ، الخلد. قنافذ، خفافيش، الجرذان، أبو غزوان (أبو حصين)، بنات وردان، قراد، نمل سليماني، وزغات، ورق الحمام، زنابير، عقارب، غرابل، بوم، حيات، عنكبوت، آفات، غراب،..). إلخ

ويقول ابن الأعمى مبينا هذا الحشد الهائل من الحشرات في بيته:

١. دار سكنت بهـــا أقل صفاتهـــــا أن تكثر الحشرات في جنباتها
٢. من بعض ما فيها البعوض عدمته كم أعدم الأجفان طيب سناتها
٣. وتبيت تسعدهـــــا براغيــث متى غنت لها رقصت على نغماتها
٤. رقص بتنقيـط ولكـــن قافـــــه قـد قدمت فيه على أخـواتهـــا

يذكر الشاعر بعضا من الحشرات التي يعج بها المكان فهناك (البعوض)، الذي لا يكف عن الحركة وإزعاج صاحب الدار فيعجز عن النوم، يضاف إلى ذلك البعوض في تحقيق الإزعاج وعدم تمكينه من النوم (براغيث)، يسعدها صوت الناموس وطنينه، الذي يقض مضجعه، وينغص نومه.

٥. وبها ذباب كالضباب يسـدُّ ع ... ين الشمس ما طربي سوى غناتها
٦. أين الصوارم والقنا من فتكهـا ... فينا وأين الأسد مـــن وثباتهـا
٧. وبها من الخطاف ما هو معجز أبصارنا عن حصر كيفياتهـــا
٨. تغشى العيون بمرها ومجيئهـا ... وتصم سمع الخلد من أصواتها

[1] د. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ١٨٩.

٩. وبها خفافيش تطير نهارهـــا ... مع ليلها ليست على عاداتهـا

١٠. شبهتها بقنـــــافذ مطبوخـــة ... نزع الطهاة بنضجها شوكاتهـا

١١. فاقت على سمر القنا في لونها ... وسماتهـــا وشياتها وصفاتهـا

وينتشر الذباب بأرجاء الدار، وهو لكثرته وكثافته يسد عين الشمس فلا يسقط شعاعها، وهو لضخامة عدده يصدر أصواتا مزعجة اعتادتها أذنه، وهو يشبه في شدة فتكه وعمق أثره السيوف القاطعة والقنا. إنه في فتكه بضحاياه يشبه الأسد في وثبته على فرائسه. وبهذه الدارخطاف التي (تعجز الأبصار عن حصر كيفاتها)، فهي لا تزال تتحرك حركة دائبة، ولشدة علو صوتها وفظاعته فإنها تكاد تصم الخلد.

وبالدار خفافيش لا تنقطع حركتها الدائبة ليلا أو نهارا، على غير ما جرت عليه عادتها حيث تنطلق ليلا وتختفي نهارا، وهي تشبه في قبح هيئتها وبشاعة منظرها القنافذ حين تُنزع أشواكها، وقد طبخت. وقد بدت في لونها الأسود شديدة السواد.

١٢. وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجُرد في حملاتهـا

١٣. تـرى أبا غزوان منهـــا هاربـاً ... وأبا الحصين يروغ عن طرقاتهـا

١٤. وبها خنافس كالطنافس أفرشت ... في أرضها وعلت على جنباتها

١٥. لو شم أهل الحرب منتن فسوها ... أردى الكماة الصيد عن صهواتها

١٦. بنات وردان وأشكـــال لهـــا ... ممـا يفوت العين كنه ذواتهـــا

١٧. متزاحـــم متراكـــم متحـارب ... متراكب في الأرض مثل نباتهـا

وبهذه الدار جرذان ضخمة تفوق الخيول العتاق في انطلاقها، وفيها القطط الضخمة التي تهرب منها، وفيها الثعالب التي تجري في طرقاتها، وفيها الخنافس الضخمة التي تبدو كأنها طنافس (الطَّنْفَسَةُ: البساط، النُّمرُقةُ فوقَ الرَّحْل)، قد افترشت الأرض

وعلت الجدران، وتصدر عن الخنافس رائحة قوية تردي أشد الشجعان. وتتناثر بنات وردان ((ورد) دابة صغيرة كالخنفساء حمراء اللون إجمالا، كريهة الرائحة، كثيرا ما تكون في الحمامات والأماكن القذرة، ج بنات وردان) وهي أشكال متعددة، لا يمكن للعين أن تدرك حقيقتها، وقد بدت صور بنات وردان غريبة عجيبة، فهي تتزاحم فيما بينها، وقد تراكم بعضها فوق بعض، وتتقاتل فيما بينها، وتراص بعضها فوق بعض. وهذا الوصف جعل الصورة كأنها ماثلة أمام أعيننا في تزاحمها وتكدسها وتصارعها فيما بينها.

١٨. وبها قراد لا اندمال لجرحها ... لا يفعل المشراط مثل أداتهـــا
١٩. أبدا تمص دماءنا فكأنها ... حجامة لبدت على كاساتهـــــا
٢٠. وبها من النمل السليماني مـا ... قد قل ذر الشمس عـن ذراتها
٢١. لا يدخلون مساكناً بل يحطمو ... ن جلودنا فالعفو مـن سطواتها
٢٢. ما راعني شيء سوى وزغاتها ... فنعوذ بالرحمن مـن نزغاتهـــا
٢٣. سجعت على أوكارها فظننتها ... ورق الحمام سجعن في سحراتها
٢٤. وبهـا زنابير تُظـن عقاربـــا ... لا برء للمسموم من لدغاتهـــا
٢٥. وبهـا عقارب كالأقارب رتعاً ... فينا حمـانا الله لـــدغ حماتهـــا

ومن الحشرات التي تسكن في الدار القراد [١] وهي إذا قرصت فإن جرحها لا يندمل، فهي أحد من المشرط نفسه في قسوة فعلها، وهي تمص الدماء دوما لدرجة أنها صارت مثل الحجامة تمص الدماء من الناس . ويضاف للقراد أيضا النمل السليماني، وقد بدا كثير العدد حتى كأنه لكثافته وتجاوره وتلاصقه يسدُّ عين الشمس، وهو نمل يفعل

[١] – : **القُرَادُ : دُوَيْبَّةٌ متطَفِّلَة من المَفْصِلِيَّات، ذات أربعة أَزواج من الأَرجل، تعيش على الدوابّ والطُّيور وتمتصُّ دَمَها، ومنها أَجناسٌ الواحدةُ: قُرادَةٌ**

فعله في الجلد فيؤذيه أذى شديدا. وتنتشر في هذه الدار الوزغ الذي يستعيذ الشاعر من نزغاته القوية، ويصدر عنها صوت يشبه صوت الحمام، وفي الدار أيضا زنابير(وهي على صغر حجمها وضآلته) تشبه العقارب التي يراها كالأقارب، ولا شفاء ولا برء للمسموم من لدغاتها ، [١] ويدعو الله أن يحميه من لدغاتها .

ثانيا: الحوائط

٢٦. وكأنما حيطانها كغرابل ... أطلعن أرؤسهن من طاقاتها

وتبدو حيطانها كأنما هي غربان قد أطلت برؤوسها من طاقات فيها، فتبدو غريبة الشكل.

٢٧. كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا ... ة ولا حياة لمن رأى حيَّاتهـــا

٢٨. السم في نفثاتها والمكـــر في ... لفتاتها والمـــوت في لسعاتهـــا

٢٩. منسوجة بالعنكبوت سماؤهـــا ... والأرض قد نسجت بيراقاتهـــا

٣٠. فلقد رأينا في الشتاء سماءها ... والصيف لا تنفك من صعقاتها

٣١. فضجيجها كالرعد في جنباتها ... وترابها كالـــوبل من حسياتهـا

٣٢. والبوم عاكفة على أرجائهـــا ... والآل يلمع في ثرى عرصاتها

وهذه الدار تعج بالحيات التي لا نجاة لمن يراها، إما خوفا ورعبا منها أو أنها قاتلة، فإنها تنفث سما مميتا، وهي خداعة ماكرة في حركاتها السريعة الخاطفة، وحين تلدغ فثمَّ الموت. وقد احتلتها العناكب فنسجت عليه خيوطها في سمائها، في حين امتلأت الأرض بيرقاتها، وهي في الشتاء تصنع سماء من خيوطها الكثيفة التي تظلل المكان كله، وفي الصيف لا تكف عن صعقاتها، وهي تصدر ضجيجا عاليا كالرعد الذي يتنشر في أرجاء الدار، وينتشر ترابها انتشارا واسعا.(لعله قصد أنه لا سقف لها ولذا يرى الشتاء

[١] **_ وهذا مثل من الأمثال الشائعة في ثقافتنا المصرية ويأتي على هذه الصورة (الأقارب عقارب).**

من سمائها، وفي الصيف يصعقها لهيب الصيف، وما يكون فيها من ضجيج يصبح كالرعد في جنباتها، وما يثور من تراب يصبح كالمطر الغزير المنتشر في جنباتها) والبوم قد تفرق في أرجائها. ثم يشير إلى ما دهى هذه الدار من الغربان.

٣٣. قالـوا: إذا ندب الغراب منازلاً ... يتفرق السكان مـن سـاحاتهـا

٣٤. وبدارنـا ألفا غراب ناعـــق ... كذب الرواة فأين صدق رواتها

٣٥. دار تبيت الجن تحرس نفسها ... فيهـا، وتنفر باختلاف لغاتها

وإذا كان قد شاع عن الناس أن غرابا واحدا يثير الشؤم إذا نعق على عدد من المنازل؛ فهو يصيبها بالخراب ويهجرها أربابها، ويتشتت شملهم، بينما دار الشاعر قد امتلأت بالغربان الكثيرة التي حلقت فيها، وتكدست في جنباتها. ولأن الدار فيها كل مفزع وكل مخيف فإن الجن تخشى على نفسها من مخاطرها، بل تحرس نفسها من غوائلها.

وتبدو الدار عند ابن دانيال مشحونة بكم هائل من الحشرات، فبعد أن وسم الشاعر هذه الدار بالضيق والهوان فإنه انطلق يعدد ما فيها من حشرات وطيور وزواحف وهوام تبعث على الرعب والهلع.

١) والبقُّ أَمثالُ الصّراصِرِ خِلقةً مِن مُتْهمٍ في حَشوِها أو مُنْجدِ

٢) يَجْعَلْنَ جِلْدي وارِماً فَتَخالُـه من قَرْصِهِنَّ بـه يذوبُ الجلمدُ

هذه الدار الخراب قد امتلأت بـ (البق) الذي لطول ما تغذى فقد صار (كالصراصير) في ضخامة حجمها، وهذا البق قد وفد إلى هذه الدار من أرجاء الدنيا التي لم يجد فيها ملاذا آمنا وغذاء وافرا، لكنه وجده في هذه الدار، فقد جاء من أقاصي الأرض: من نجد ومن تهامة. وقد ترك هذا البق آثاره الواضحة على جلد الشاعر فصار متورما، فهي لشدة قرصتها وقوة تأثيرها يمكن أن تذيب الصخر.

٣) وتــرى بَراغيثــاً بجسمي عُلِّقَتْ مثلَ المحاجمِ في المساءِ وفي الغَـدِ
٤) وكذا البعوضُ يطيرُ وهو بِريشهِ فمتـى تمكّنَ فــوقَ عــرقٍ يفصُدِ
٥) وَتَرى الخنافِس كالزنوجِ تصفّفَتْ مــنْ كُلِّ سوداءِ الأَديــمِ وأَســودِ
٦) وَلَرُبّما قُــرِنَتْ بِجَمْعِ عَقَارِبٍ قتـالةٍ قــــدرَ الحـمامِ الرُّكّـــــدِ
٧) وَتقيمُ لي عندَ المساءِ زبانَهـــا فــأراهُ وهـــو كإصبـع المتشهـدِّ
٨) هذا وَكَمْ من ناشـرٍ طاوي الحشا يبـــدو شبيــهَ الفتكِ المتَســرِّدِ
٩) يُبدي إذا ما انسابَ صفحةَ جَدولٍ عَبَثَتْ بـهِ ريــحُ الصّبا مُتَجــعِّدِ

ثم يذكر الشاعر شيئا من الحشرات التي تجول في المكان، ففيه (براغيث) التصقت بجسده، فتؤذيه وتنغص عليه يومه ونومه صباحا ومساء، فهي لا تغادر جسده، وهي ضخمة تبدو كالمحجم.

ويبدو البعوض ضخما وهو ينطلق محلقا في جنبات المنزل، وإذا هبط على عرق من عروق الشاعر فإنه يمتص ما فيه من دم. وتبدو الخنافس لشدة سوادها وتجاورها كأنها زنوج وقد تراصت بعضها بجوار بعض. ويضاف لهذه الخنافس عقارب كثيرة العدد، شديدة السواد، حمالة الموت، يسير الموت المحتم حيث سارت، وحين يأتي المساء ترفع زبانها في حركة مرعبة تبدو كإصبع المتشهد في صلاته [١] . كما يوجد في الدار ثعابين سامة قد انتشرت في جنباتها (كم من ناشر [٢] طاوي الحشا) يدور معها الهلاك حيث سارت (المتسرد: الذي يتابع خطاه عند المشي). وتبدو هذه الثعابين في حركتها كأنما هي صفحة جدول وقد حركته الريح فجعلت الماء يتماوج.

ثم يشير إلى مجموعة من الحشرات والطيور والحيوانات التي تحل بهذا البيت:

(١) تبدو الصورة غريبة خاصة أن جو الصلاة جو خشوع وخضوع وجو طمأنينة لله عز وجل، بينما صورة العقرب فيها الموت والهلاك المحتم.

(٢) النَّاشِرُ: نوعٌ من الثَّعابين السامَّة ينشر رأسه فيكون كالمغرفة

١٠)والفارُ يَرْكضُ كالخيولِ تَسابُقت مـــن كُلِّ جَـــرداءِ الأَديمِ وأجرَدِ

١١)يأكُلنَ أَخشابَ السّقوفِ كمثلِ فا راتِ النِّجارةِ إذْ تُحَــكُّ بمِبْـــرَدِ

١٢)وكأنَّ نسجَ العنكبوتِ وَبَيْتَـــه شَعْرِيّـــةٌ مـن فَـوْقِ مُقْلَةِ أرمَـدِ

١٣)وكـذاكَ للحِرذَونِ صَـوْتٌ مـثلُـهُ في مَسْمَعي صوتُ الزِّنادِ المُصْلَدِ

فالفئران تركض في هذا البيت وكأنها الخيول التي تتسابق فيما بينها، وهذه الفئران تأكل أخشاب السقف بأسنانها الحادة القاطعة كأنها مبارد حادة تأخذ شيئا فشيئا من فارات النجارة، وهو ما يدل على تتابع القرض وتسارعه وكذلك يدل على أسنانها الحادة التي تفعل فعلها في الفارات، وصغر ما خلفته تلك الفئران من قرضها المتوالي في الخشب. ومن هذه الحشرات التي تعيش في هذا المكان (العنكبوت) الذي ينسج بيته بما يشبه شعرة فوق مقلة من أصابه الرمد. ويصدر "الحرذون" [١] صوت قوي عنيف كصوت الزناد.

ثم يعدد بعض الحشرات الأخرى التي حلت بالمكان كالخفافيش التي تنطلق في المكان فتعبث بضوء المصباح بحركتها الدائمة، والزنبور الذي بدا في تعدد لونه كأنما هو ثوب موشى بالذهب ويصدر أصواتا تختلط بأصوات الذباب الذي يصدر أصواتاهو الآخر. ثم يجمل الشاعر فعل هذه الحشرات والطيور والهوام التي التأم شملها في هذه الدار ويصفه بأنه قادر على أن يشتت شمل جيش كبير فيجعله يولي هاربا خوفا وهلعا، يقول.

---

(١) الحِرْذَوْنِ، بالمعجمةِ: لِذَكَرِ الضَّبِّ، أو دُوَيبَّةٌ أُخْرَى. القاموس المحيط–مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي–توفي: ٨١٧هـ/١٤١٤م وجاء في جمهرة اللغة–أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي–توفي: ٣٢١هـ/٩٣٣م،والحِرْذَوْن دُوَيبَّة لا أقف على حقيقة صفتها وجاء في مختار الصحاح–محمد بن أبي بكر الرازي–توفي: ٦٦٦هـ/١٢٦٨م. (الْحِرْذَوْنُ) بِكَسْرِ الْحَاءِ دُوَيْبَةٌ وَقِيلَ هِيَ ذَكَرُ الضَّبِّ.

١٤)وإذا رأى الخُفّاشُ ضوءَ ذُبالةِ عندي أَضرَّ بِضَوئها المتَوَقِّدِ

١٥)وكأنّما الزنبورُ أُلبِسَ حُلّةً مُوشِيّةً أعلامُها بالعَسْجدِ

١٦)مُتَرَنِّمٌ بينَ الذُّبابِ مُغَرِّدٌ لا كانَ مِنْ مُتَرَنِّم وَمُغَرِّدِ

١٧)حَشَراتُ بيتٍ لو تَلَقّتْ عَسْكراً ولّى على الأَعقابِ غيرَ مُرَدَّدِ

وتبدو الحشرات كثيرة كثرة بالغة (البعوض، براغيث، ذباب، الخطاف، خفافيش، الجرذان، أبا غزوان، أبا الحصين، خنافس، بنات وردان، قراد، النمل السليماني وزغ، زنابير، عقارب، حيات، العنكبوت، البوم، الغراب، الجن..). وقد عدد الحشرات ما يربو على عدد الحيوانات والحشرات ٢٠ صنفًا.

المحور الثالث: وصف الدار من الداخل والمتاع .

وصف كلا الشاعرين بعض المظاهر المادية للدار وما فيها من فراش بسيط يؤشر بقوة على البؤس الشديد الذي تنضح به الدار في كل جوانبها. يقول ابن الأعمى:

٣٦. والنار جزء من تلهب حرها ... وجهنم تعزى إلى لفحاتها

٣٧. قد رُممت من قبل يلقى آدم ... مع أمنا حواء في عرفاتها

٣٨. شاهدت مكتوباً على أرجائها ... ورأيت مسطوراً على عتباتها

٣٩. لا تقربوا منها وخافوها ولا ... تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها

٤٠. أبداً يقول الداخلون ببابها ... يا ربِّ نجِّ الناس من آفاتها

وهذه الدار قد اشتد حرها والتهبت نيرانها واضطرمت اضطراما شديدا، فكأن النار جزء من نيرانها، وما حر جهنم إلا جزء من لفحاتها القوية التي تلهب أصحابها بنارها الحارقة. والدار عتيقة قديمة؛ فهي قد رُممت قبل أن يهبط آدم عليه السلام والسيدة حواء على الأرض، وقد توزعت التحذيرات والتنبيهات من الاقتراب منها في الأرجاء والعتبات

(لا تقربوا منها، خافوها، ولا تلقوا بأيدكم إلى التهلكة)، وإذا ما رغب أحد في الاقتراب من أبوابها، فضلا عن الولوج فيها، فلا بد أن يدعو الله أن ينجيه من آفاتها.

ويأتي الوصف المادي للدار لدى ابن دانيال جليا، حيث يأتي البيت الثاني لديه ليؤكد هذه الحقيقية المرة (شدة العوز)؛ وليكون شاهدا على شدة فقره، فالمنزل ضيق ضيقا شديدا، ويبدو كأنما هو حفرة صغيرة أو لَحْد؛ فهو لا يكاد يسع إلا شخصا واحدا، وهو يؤكد صغر رقعته وضآلة حجمه بأنه لو أراد أن يرقد فيه فإنه لا يمكنه أن يمد رجليه، فليس له أن ينام إلا وقد ثنى جسمه.

٢- في مَنزِلٍ لم يحَوِ غَيريَ قاعداً فمتى رَقَدتُ رَقَدتُ غيرَ مُمَدَّد

ثم يورد ما يؤكد هذا الفقر والعوز من خلال ما في الدار من فراش يقول:

٣- لَمْ يبقَ فيهِ سِوى رسومِ حَصيرةٍ ومخدَّةٍ كانَتْ لأُمِّ المهتَدي

٤- تُلقى على طُرَّاحةٍ في حَشْوها قملٌ شبيهُ السمسمِ المُتَبَدِّدِ

فليس في هذه الدار من أدوات المعيشة ووسائلها سوى "رسوم حصيرة" (وهي كلمة تستحضر معها رسوم الديار وبقاياها) فقد طالها البلى حتى اهترأت، و"مخدة" عتيقة جدا كانت لأم الخليفة المهتدي، وهي ملقاة على فراش مهترئ (طُرّاحة: كلمة تعني فراش النوم الذي يوضع على الأرض بخلاف السرير المرتفع عن الأرض) والحصيرة والمخدة رغم الحاجة إليهما في المنزل وقلة سعرهما فإنه عاجز عن شراء جديد منهما. وهذا الفراش قد امتلأ حشوه بـ "قمل" قد عبث فيها وانتشر في نواحيها، وقد بدا لكثرة عدده وتجاور أمكنته كأنه سمسم متناثر. لذلك فإن مظاهر البؤس في البيت متجلية، فهو لا يحوي من المتاع سوى "رسوم الحصيرة" و"مخدة" عتيقة، و"طراحة" قد بسطت على الأرض".

ثم يظهر صورة أخرى من صور فقره المدقع ويتصل بثيابه المهترئة التي تعاورت عليها الرقاع وتجاورت، ولكثرة ما رُقِّعت برقاع مختلفة صارت مثل ريش الهدهد.

١٨-هـذا ولي ثـوبٌ تَـراهُ مُـرَقّـعـاً مـنْ كُـلِّ لَونٍ مـثـل ريـشِ الهُـدْهـدِ

المحور الرابع : الصبر على عذاب الدنيا وانتظار متع الجنة.

وحين تعسر الحياة وتعز الراحة لا يجد ملجأ له إلا الزهد فيما في دنياه، فهو حيلة المضطر ومأمول المعدوم، ووعد المغلوب على أمره. (صبرا لعل الله يعقب راحة)، فلا راحة له في الدنيا ولا تبدو مأمولة عما قريب، ثم يستعيد بعضا مما عاناه، وجانبا مما قاساه، فقد بات فيها وحيدا وعاش حزينا، لا يجد من يواسيه أو يسليه، أو يخفف عنه وعيونه لا تكف عن البكاء من الحزن الشديد والقهر الممض لحاله، وما يقاسيه في هذه الدار فهو يحن من المساء حتى الصباح ليرتاح من قسوة الحياة في هذه الدار. ولذلك (العين شوقا للصباح تسحُّ من عبراتها). وهو يتوجه بخالص الدعاء لرب العباد بأن يعوضه عن داره خيرا فهو لا يراها إلا جهنم، (أسكتني بجهنم الدنيا) فهذه الدار ونار جهنم سواء، فهي لا تشبهها دار أخرى، ولا يطلب سوى التعويض في الآخرة (ففي أخرى هبْ لي الخلد في جناتها)، ثم يأتي الدعاء الخالص بأنه يجمعه الله بمن يحب في الآخرة، فقد حُرم أن يجتمع به في الدنيا لسوء حاله، ندرة ماله، وصغر داره وقلة حيلته وعجزه عن العيش فيها لضعة شأنها وما فيها من حشرات وهوام وطيور مخيفة ما لا يجعلها صالحة للعيش، وهي لهذا كله كيف يستطيع من يحبه أن يعيش معه فيها وهي ليست بدار الا بالاسم، فيدعو الله أن يجمعه بمن يحب في الآخرة، فهو القادر على جمعها ولم شتاتها.

٤١. صبراً لعل الله يعقب راحـــة ... للنفس إذ غلبت على شهواتهـــا

٤٢. كم بِتُّ فيها مفرداً والعين شو ... قاً للصباح تسح مــن عبراتهـــا

٤٣. وأقول: يا رب السموات العلا ... يـا رازقاً للوحـش في فلواتهـــا

٤٤. أسكنتني بجهنم الدنيــا ففي ... أخراي هب لي الخلد في جناتها

٤٥. واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً ... يا جـامع الأرواح بعد شتاتهـــا

ثم يبرز ابن دانيال أحد أبرز وجوه هذا الفقر الشديد المتبدي في صاحب الدار، لتكون المحصلة النهائية له هي الشقاء الدائم والبؤس المقيم، ويبدي حزنه الشديد وألمه الممض على مجيئه إلى هذه الدنيا، وكأنه خلق ليشقى، على الرغم من سمو همته وعلو آماله إلا أن حظه في "الحضيض الأوهد"، في حين أنه يرى أن السعادة والسرور قد حلتْ بين قوم لا حظّ لهم من العقل الراجح والسيادة والمجد والشرف.

١٨) لولا الشّقاوة مـا وُلِـدْتُ وَلَيتني إذْ كـانَ حـظِّي هكذا لـم أولَـــــد

١٩) ولكيفَ أرضـى بالحياة وَهمّتي تسمو وَحَظِّي في الحضيضِ الأَوهدِ

٢٠) وأرى السّعادةَ قـد أُحِلّتْ مَعْشراً رَبتَ العُـــلا لا بالنُّهى والســـــؤد

لقد استطاع نص ابن دانيال–وكذلك نص ابن الأعمى– تصوير الحياة البائسة بشكل ساخر "وإذا ما تجاوزنا إطار الصياغة الساخرة، وجدنا المضمون ينطوي علي تصوير دقيق لحياة الأغلبية الشعبية المغمورة في بؤسها وضياعيا، في فقرها وحرمانها، على حين كان الجلادون يسكنون القصور الشامخة التي أسهب المؤرخون في وصف فخامتها مؤكدين في الوقت نفسه أن كثيرا منها قد شيدت دعائمه على الظلم والاغتصاب والمصادرات ودماءالعوام أثناء تسخيرهم في أعمال البناء" (١)

قد تمكن ابن دانيال من خلال قصيدته تلك وغيرها من النصوص أن يعرض لنا حال المجتمع ومعاناته القاسية فقد " قدم لنا صورة فريدة للفقر المثالي الذي يمكن أن

(١) د. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ١٥٨

يصيب الناس، ولولا هذا الفقر ما كان لنا مثل هذا الأدب الذي يعكس وضع الفقراء ، وينفّس كربهم ، ويثير تساؤلاتهم الكامنة وراء ما هم فيه من عوز وفاقة، والتساؤل بداية البحث عن سبيل الخلاص " [١]

وهذا الوصف الساخر للدار لا يعني بالضرورة معايشة ابن دانيال حقيقة لهذه الدار ولكن عينه الفاحصة استطاعت أن تنتقي هذه الصورة الساخرة لتعبر بها عما أرادات فابن دانيال لم يبلغ حدا بالغا من الفاقة كما أنه لم يقصد الإضحاك فقط، إنما كان من الذكاء والفطنة بأن يجعل الإضحاك شيئا شبيها بالمخدر في حين يعمل المبضع في جسد المريض. [٢]

ويشير د. النجار إلى ما اتسمت به هذه القصيدة في لغتها وصورها وتراكيبها. "نلاحظ أن ابن دانيال قد صحف معلقة طرفة، ورسم الصور المضحكة، والألفاظ والتعبيرات كما ترى مستقاة من لغة الشعب وكذلك الصور التي أبرزها مستوحاة من البيئة على ما فيها من روعة، فصورة رقص الفار وزبان العقرب الذي يشبهه بإصبع المتشهد وصورة نسج العنكبوت والعين التي أصابها الرمد وغير ذلك مما يشهد لشاعرنا بالأصالة الفنية. فابن دانيال أنسانا بجمال صوره وتورياته عامية اللفظ، بل إن هذه الروعة الفنية لم تأت إلا لكون اللفظ بلغة العامة الذي يصور حياتهم، كما أنه استوقفنا عن الضحك للتأمل في حياة المجتمع في عصرة بنظرة عميقة. وهكذا لم يكن تحامق ابن دانيال الذي لم يلتزم فيه قواعد الشعر العربي، فلم يراع صحة اللفظ أو اللغة قدر ما راعى السهولة والفكاهة سوى أنه تعبير صادق لواقع الحياة في عصره عمد فيه إلى الرمز الذي وشحه بثوب الفكاهة"[٣]

---

(١) محمود سالم محمد، أدب الصناع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٣م، ٢٥٦

(٢) د. فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ملامح المجتمع المصري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٣م. ص ١٧٦

(٣) د. محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، ص ٢٠٩.

نص قصيدة ابن الأعمى (١)

١. دار سكنت بها أقــل صفاتها ... أن تكثر الحشرات في جنباتها
٢. الخير عنها نــازح متباعــد ...والشر دان من جميع جهاتهـا
٣. من بعض ما فيهـا البعوض عدمته ...كم أعدم الأجفان طيب سـناتها
٤. وتبيت تسعدهــا براغـيث متى...غنت لها رقصت علــى نغماتها
٥. رقص بتنقيـط ولكـن قافـــه ...قد قدمت فيه علــى أخواتهـا
٦. وبها ذباب كالضبــاب يســدع ...ين الشمس ما طربي سوى غناتها
٧. أين الصوارم والقنا مــن فتكهـا ...فينا وأين الأسد من وثباتهــا
٨. وبها من الخطاف ما هو مـعـجز...أبصارنا عن حـصر كيفياتهـا
٩. تغشى العيون بمـرها ومجيئهـا ...وتصم سمع الخلد من أصواتهـا
١٠. وبها خفافيــش تطير نـهارهـا ...مع ليلها ليست على عاداتهــا
١١. شبهتهــا بقنافـذ مطبـوخـــة ...نزع الطهاة بنضجها شوكاتهـا
١٢. فـاقت على سمر القنا في لونــها ...وسماتها وشياتها وصفاتهــا
١٣. وبها من الجرذان ما قد قــصرت ...عنه العتاق الجـرد في حملاتها
١٤. فترى أبا غزوان منــها هاربـاً ...وأبا الحصين يروغ عن طرقاتها
١٥. وبها خنافس كالطنافس أفرشــت ...في أرضها وعلت على جنباتهـا
١٦. لو شم أهل الحرب منتن فــسوها ...أردى الكماة الصيد عن صهواتها

---

(١) بن شاكر (المتوفى: ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٧٤م، ج٣، ص٧٣ وما بعدها، المستطرف في كل فن مستطرف، الأبشيهي (المتوفى: ٨٥٢هـ)،عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ، ص٢٥٤ . (سبق أن تم تناول المصادر التي ورد فيها النص في الجزء الخاص بالتعريف بالشاعرين وآراء النقاد حولهما.

١٧. وبنات وردان وأشكـــال لهـــا ...مما يفوت العين كنه ذواتهـــا
١٨. متزاحـم متراكـــم متحـــارب ...متراكب في الأرض مثل نباتها
١٩. وبها قراد لا اندمـــال لجرحهـا ...لا يفعل المشراط مثل أداتهـــا
٢٠. أبدا تمـــص دماءنا فكأنهـــا ...حجامـة لبدت على كاساتهـا
٢١. وبها من النمل السليمـــاني مـا ... قد قل ذر الشمس عن ذراتهـا
٢٢. لا يدخلون مساكناً بل يـــحطمـو ...ن جلودنا فالعفو متن سطواتها
٢٣. ما راعني شيء ســـوى وزغاتها ...فنعوذ بالرحمن من نزغاتهـــا
٢٤. سجعت على أوكـــارها فظننتها... ورق الحمام سجعن في سحراتها
٢٥. وبها زنابيـــر تظن عقاربـــا ... لا بـرء للمسموم من لدغاتها
٢٦. وبها عقارب كالأقـارب رتعـــاً ... فينا حمانا الله لدغ حماتهـــا
٢٧. وكأنمـا حيطـــانها كغرابـل ... أطلعن أرؤسهن من طاقاتهـا
٢٨. كيف السبيل إلى النجاة ولا نجـا ... ة ولا حياة لمن رأى حياتهـا
٢٩. السم في نفساتها والمكر فـــي ... لفتاتها والموت فـي لسعاتهـا
٣٠. منسوجة بالعنكبوت سماؤهـــا ... والأرض قد نسجت ببراقاتها
٣١. فلقد رأينا في الشتاء سماءهـــا ... والصيف لا تنفك من صعقاتها
٣٢. فضجيجها كالرعد في جنباتـــها ... وترابها كالوبل من حسياتهـا
٣٣. والبوم عاكفـة على أرجـائها ...والآل يلمع في ثرى عرصاتها
٣٤. والنار جـزء من تلـهب حـرها ...وجهنم تعزى إلـى لفحاتهـا
٣٥. قد رممت مـن قـبل يلـقى آدم ...مع أمنا حـــواء في عرفاتها
٣٦. شاهـدت مـكتوباً على أرجائـها ...ورأيت مسطوراً على عتباتهـا
٣٧. لا تقربوا منها وخـافـوها ولا ...تلقوا بأيديكم إلى هلكاتهـــا
٣٨. أبداً يقول الداخـلون ببابهـــا ...يا رب نج الناس من آفاتهـــا

٣٩. قالوا: إذا ندب الغراب منازلاً ...يتفرق السكان من ساحاتها
٤٠. وبدارنا ألفا غراب ناعق ...كذب الرواة فأين صدق رواتها
٤١. دار تبيت الجن تحرس نفسها ...فيها وتنفر باختلاف لغاتها
٤٢. صبراً لعل الله يعقب راحة ...للنفس إذ غلبت على شهواتها
٤٣. كم بت فيها مفرداً والعين شو ... قاً للصباح تسح من عبراتها
٤٤. وأقول: يا رب السموات العلا ... يا رازقاً للوحش في فلواتها
٤٥. أسكنتني بجهنم الدنيا ففي ...أخراي هب لي الخلد في جناتها
٤٦. واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً ... يا جامع الأرواح بعد شتاتها

نص ابن دانيال (١)

١. أَصبّحتُ أَفقَرَ مَن يَروحُ وَيغتدي ما في يَدي من فاقتي إلاَ يَدي
٢. في مَنزِلٍ لم يحَوِ غَيريَ قاعداً فمتى رَقَدتُ رَقَدتُ غيرَ مُمَدَّد
٣. لَمْ يبقَ فيهِ سِوى رسومِ حَصيرةٍ ومخدَّةٍ كانَتْ لأُمِّ المهتَدي
٤. تُلقى على طُرَّاحةٍ في حَشْوها قملٌ شبيهُ السمسمِ المُتَبَدِّدِ
٥. والبقُّ أَمثالُ الصّراصِرِ خِلقةً مِن مُثْهِمٍ في حَشوِها أو مُنْجِدِ
٦. يَجْعَلْنَ جِلْدي وارِماً فَتَخالُه من قَرْصِهِنَّ به يذوبُ الجلمدُ
٧. وترى بَراغيثاً بجسمي عُلِّقَتْ مثلَ المحاجمِ في المساءِ وفي الغَدِ
٨. وكذا البعوضُ يطيرُ وهو بِريشهِ فمتى تمكّنَ فوقَ عرقٍ يفصُدِ

(١) د. إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال: دراسة وتحقيق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت ، كما تمت الإشارة عند التعريف بالشاعر إلى بعض المصادر التي وردت فيها القصيدة.

٩. وَتَرى الخنافِس كالزنوجِ تصفّفَتْ منْ كُلِّ سوداءِ الأَديمِ وأَسـودِ
١٠. وَلَرُبّما قُرِنَتْ بِجَمْعِ عَقَـاربٍ قتالةٍ قـدرَ الحمامِ الرُّكّـدِ
١١. وَتقيمُ لي عندَ المساءِ زبانَهـا فأراهُ وهو كإصـبع المتشـهدِّ
١٢. هذا وَكَمْ من ناشرٍ طاوي الحشا يبدو شبيهَ الفـتكِ المتَـسرّدِ
١٣. يُبدي إذا ما انسابَ صفحةَ جَدولٍ عَبَثَتْ بهِ ريحُ الصّبا مُتَجعّـدِ
١٤. والفارُ يَرْكضُ كالخيولِ تَسابُقاً من كُلِّ جَرداءِ الأَديمِ وأجـرَدِ
١٥. يأكُلنَ أَخشابَ السّقوفِ كمثلِ فا راتِ النِّجارةِ إذْ تُحَكُّ بمِبْـرَدِ
١٦. وكأنَّ نسجَ العنكبوتِ وَبَيْتَـه شَعْرِيّةٌ من فَوْقِ مُقْلَةِ أرمـدِ
١٧. وكذاكَ للحِرذَونِ صَوْتٌ مثلُـهُ في مَسْمَعي صوتُ الزِّنادِ المُصْلَدِ
١٨. وإذا رأى الخُفّاشُ ضوءَ ذُبالةِ عندي أَضرَّ بِضَوئهـا المتَوَقّدِ
١٩. وكأنّما الزنبورُ أُلبِسَ حُلّـةً مُوشِيّةً أعلامُهـتا بالعَسْجـدِ
٢٠. مُتَرَنّمٌ بينَ الذُّبابِ مُغَـرِّدٌ لا كانَ منْ مُتـرَنِّمٍ وَمُغَـرِّدِ
٢١. حَشَراتُ بيتٍ لو تَلَقّتْ عَسْكراً ولّى على الأَعقابِ غيرَ مُـرَدَّدِ
٢٢. هذا ولي ثوبٌ تَراهُ مُرَقّعـاً منْ كُلِّ لَونٍ مثل ريشِ الـهُدْهدِ
٢٣. لولا الشّقاوة ما وُلِدْتُ وَلَيتنـي إذْ كانَ حظّي هكـذا لم أولَـد
٢٤. ولكيفَ أرضى بالحياة وَهمّتي تسمو وَحَظّي في الحضيضِ الأَوهدِ
٢٥. وأرى السّعادةَ قد أُحِلّتْ مَعْشراً رَبتَ العُلا لا بالنُّهى والسـؤددِ

خاتمة البحث

- يمكننا بعد دراستنا لهذا الموضوع أن نتبين عدة نتائج أبرزها:
- أن هناك عدة عوامل أسهمت بشكل كبير في حدوث الفقر والبؤس الشديد في المجتمع في العصر المملوكي خاصة للطبقات الضعيفة والمهمشة. أبرز هذه العوامل كثرة الحروب التي خاضها المماليك مثل معاركم ضد المغول وضد الصليبين، وأسهمت في تكريس الجهود للحرب وما يتصل بها، ويتصل بذلك كون المماليك من طبقة خلقت للمعارك في أصل نشأتها وتربيتها، وصار السلطان لمن غلب، فظل الصراع قائما بين المماليك أنفسهم في محاولة للاستيلاء على السلطة مع أية فرصة سانحة، وكان اختلافهم العرقي وعدم ذوبانهم في المجتمع المصري سببا جوهريا في جعلهم عنصرا معزولا عن طبيعة الشعب. ودوره هو الحكم ودور الشعب الخضوع لهذه السلطة القاهرة. كما أسهمت ثورات العربان لدواعيها السياسية والاقتصادية سببا في اضطراب الأحوال وكذلك هبات المصريين ضد المماليك. أسهمت الضرائب الباهظة التي كان يتم فرضها والتعسف فيها تحصليها في إيجاد أزمات كبرى للتجاور مما انعكس علي الأسواق وعلى معيشة الناس.
- أن شكوى الشعراء من الفقر والبؤس ووصفه ليست مستحدثة في العصر المملوكي، ولكنها قديمة، فقد تبدت في العصر الجاهلي لدى طبقة الصعاليك، وظهرت بقوة لدى بعض شعراء العصر العباسي كابن الشمقمق الذي وصف كثيرا من مظاهر فقره وبؤسه. وظهر ما يسمى بـ(شعراء الكدية).
- أن الشاعر المملوكي اتصل بمجتمعه اتصالا قويا لكونه صار أقرب إلى المجتمع منه إلى السلطة، فعالج في شعره كثيرا من قضايا مجتمعه ومنها تسلط السلطة

وظلمها وقهرها للناس و الفقر وظواهره المختلفة بأسلوب يغلب عليه طابع الفكاهة والسخرية والتحامق.

- أن الشاعر في العصر المملوكي تجلت معاناته في عدة صور في المطعم والملبس والمسكن، وقد عمد إلى استخدام الفكاهة والسخرية والتحامق في مواجهة تسلط السلطة وتجبرها عليه، بوصف ذلك شكلا من أشكال المقاومة.
- تجلى في نصي الشاعرين: ابن الأعمي وابن دانيال وصف الدار في نص كامل مطول بشكل غير معهود، ولهذا ربما نالت هاتان القصديتان حظا وافرا من الشهرة خاصة قصيبدة ابن الأعمى، ويأتي وصف الدار في النصين مشبعا بسخرية عالية، معبرة عن فقر مدقع وبؤس شديد.
- أن ملامح الفقر والبؤس التي برزت بشكل ساخر في القصيدتين وردت من خلال عدة محاور.
- مطالع النص التي تؤشر إلى إطباق الفقر علي صاحبي النصين. وهو فقر يصل بهما إلى حد العدم.
- امتلاء الدار التي اتصفت بالضيق الشديد بكم كبير من الحشرات والهوام والزواحف بمختلف أنواعها التي تفعل فعلها البشع القبيح في جسم الشاعر فلا تجعل له بدا من الفرار من الدار.
- أن الدار اتصفت بالخلو التام من كل شيء وهذا يؤشر إلى عدم وجود أبسط مقومات الحياة بالمكان كالحصير المهترئ والفراش الممزق الذي أتت السنون عليه فمزقته.
- أن الشاعر ليأسه من سبل الحياة الكريمة –على الرغم من امتلاكه ما يميزه عن أهل عصره– جعله لا يؤمل الخير إلا في الآخرة. وهو لا يعزي نفسه إلا بذاك.

إن العصر المملوكي حافل بالقضايا والظواهر الأدبية التي بحاجة إلى دراسات جادة، فعلى الرغم مما بُذل في هذا المجال ولكنه غير كاف، فما زال في العصر الكثير مما يستحق عناء الدرس ومشقة البحث، كما في الوصف الساخر للجماد ورثاء بركة المياه أو رثاء الحيوانات كالفيل والحمار, وغيرهما

المصادر والمراجع

١. د. إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال: دراسة وتحقيق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت.

٢. الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي أبو الفتح (المتوفى: ٨٥٢هـ)، المستطرف في كل فن مستطرف عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ.

٣. أحمد عبد الرازق عبد العزيز محمد، الفقراء في القاهرة في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة ماجستير، بإشراف د. قاسم عبده قاسم، ، بكلية الآداب، جامعة الزقازيق. ١٤٣٢هـ ٢٠١١م .

٤. د. أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦-١٩٨٦م.

٥. ابن إياس، زين الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، (ت سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) القاهرة، ط أولى، ١٣١١هـ، ج١..

٦. أيمن محمد ريحان، الإدارة المالية في عصر المماليك من ٦٤٨هـ، ٧٨٤هـ، رسالة ماجستير، تحت إشراف د. قاسم عبده قاسم، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

٧. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر،ج٩.

٨. تغريد وضاح مصطفى كوني، المجتمع المصري في شعر شمس الدين ابن داينال الموصلي الكحال، رسالة ماجستير ، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠١٣م

٩. ديوان الجزار، (ت ٦٧٠هـ)، تحقيق د.حسين عبد العال اللهيبي، مكتبة تموز ديموزي، العراق.

١٠. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد/ الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج٥.

١١. ديوان ابن دقيق العيد: حياته وديوانه ، دراسة في الأدب المصري تحقيق: على صافي حسين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦م

١٢. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (المتوفى:١٣٩٦هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م، ج٤.

١٣. د. سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.

١٤. د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، النهضة العربية ، القاهرة، ١٩٦٢م

١٥. د. شفيق عبد الرازق أبو سعدة، شعر الخصاصة في شعر العصر المملوكي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، طبعة أولى ١٩٩١م.

١٦. ديوان أبي الشمقمق، تحقيق: واضح محمد الصمد دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

١٧. د.شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، مصر، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.
١٨. د. شوقي ضيف، في الشعر والفكاهة في مصر، دار المعارف، ١٩٩٩م .
١٩. . صلاح حسون جبار العُييدي، تجلي مظاهر الفقر الاجتماعية في شعر أبي الشمقمق، مجلة القادسية، للعلوم الإنسانية، المجلد الثاني والعشرون، العدد٢.
٢٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، ت ٧٦٤هـ: أعيان العصر وأعوان النصر، حققه على أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، محمد موعد، محمود سالم محمد، قدم له مازن بعد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، دار الفكر دمشق سوريا ١٩٩٩٨م. ج٤ .
٢١. الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢٢.
٢٢. الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، حققه وعلق عليه واستدرك عليه محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، العراق، ١٣٩٩، ١٩٧٩م.
٢٣. عامر نجيب موسى ناصر، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م ص٣٢٢، ٢٢٣
٢٤. د. عبد العزيز شرف، الفكاهة في الأدب العربي، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
٢٥. د. عبد المنعم ماجد، طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر: دراسة للأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ١٩٧٨م .

٢٦. عماد جيغم عويد العبودي، شعر الجوع في الأدب العربي، العصر المملوكي نموذجا، مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) المجلد ٣٨، العدد١ السنة ٢٠١٣م.
٢٧. د. فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ملامح المجتمع المصري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.
٢٨. د. قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد ٢٤، القاهرة، ١٩٩٩م.
٢٩. د. قصي الحسين، أركيولوجية الفساد والسلطة في النصوص الأدبية والمدونات العربية القديمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٠٠٩م.
٣٠. د محمد رجب النجار، الشعر الشعبي الساخر في عصور المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م..
٣١. د محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي(الدولة المملوكية الأولى)، دار المعارف، مصر، ج١ ، ١٩٧٠م.
٣٢. محمد سهيل قطوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٧م..
٣٣. د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب مصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م، المجلد الثامن..
٣٤. محمود سالم محمد، أدب الصناع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري، دار الفكر ، دمشق، ١٩٩٣م.
٣٥. المقريزي، (أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي) المتوفى: ٨٤٥هـ .(السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق مصطفى محمد زيادة، دار الكتب القاهرة، ١٩٤٣، ج١.
٣٦. ديوان ابن نباتة ، جمال الدين ابن نباتة المصري، تحقيق محمد القلقيلي، مكتبة التمدن، القاهرة،

Study of the Features of Social Misery in the Poetry of the Mamluk Era: The Satirical Description of Housing of Two Poets (Ibn Al-Amma 692 AH, And Ibn Daniel 710 AH) as a Case Study

Abstract

This research examines one of the literary phenomena indicative of social misery in the Mamluk rule, and this phenomenon was manifested in the ironic description of housing. This research analyzed the most prominent causes of poverty during the Mamluk rule as a crucial approach to investigating misery, and its most prominent manifestations among the poets of the era describing clothing, food, and the well-being of children.

Afterward, the research examined misery in housing-describing between two Mamluk poets; Ibn al-Amma, d. 692 AH, and Ibn Daniel, d. 710 AH, through several themes in which this misery has been addressed, most notably the convergence of the axes in two discourses, as well as their introduction. Furthermore, describing the house from the inner space with its insects, reptiles, vermin, and exotic birds, as well as describing its furniture such as mats, bedding, etc. Lastly, the description also tackles the socio-economic condition of its inhabitants.

Finally, the research sheds light and raises crucial questions regarding the purpose of the inhabitants' hope in this life and the Hereafter since peace in the world has become a distant hope.

Keywords: Mamluk Era, Mamluk Poetry, Description, Irony, Social Life, Insects.